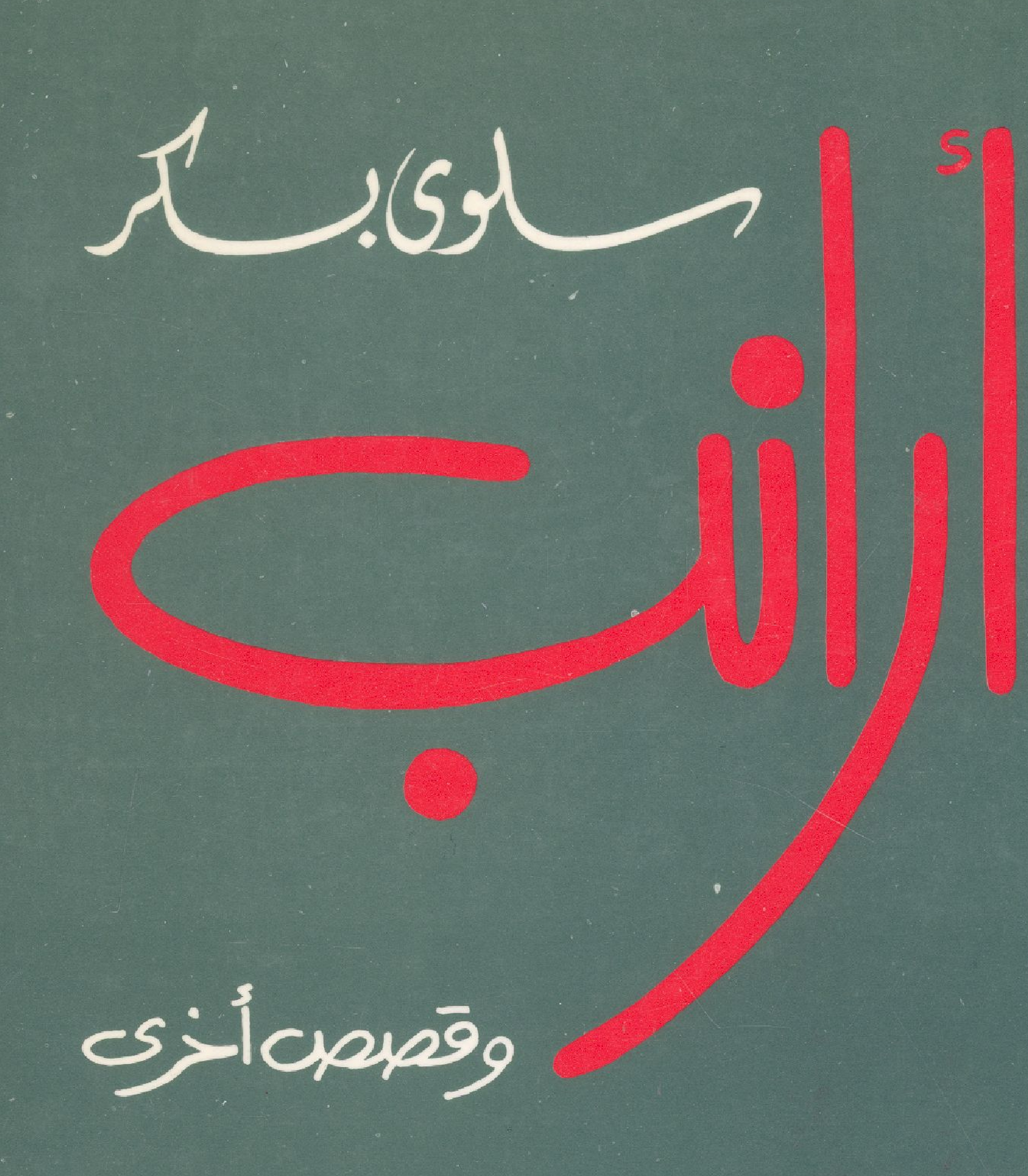


سلوى بكر

أرانب

وقصص أخرى



سينا للنشر

اهداءات ٢٠٠٢

أ.د/ يوسف زيدان

مدير المخطوطات و الاهداءات


أرانب

الكتاب : أرانــــــب
الكاتبة : ســــلوى بكـــر
الطـــبعة الأولـــى ١٩٩٤

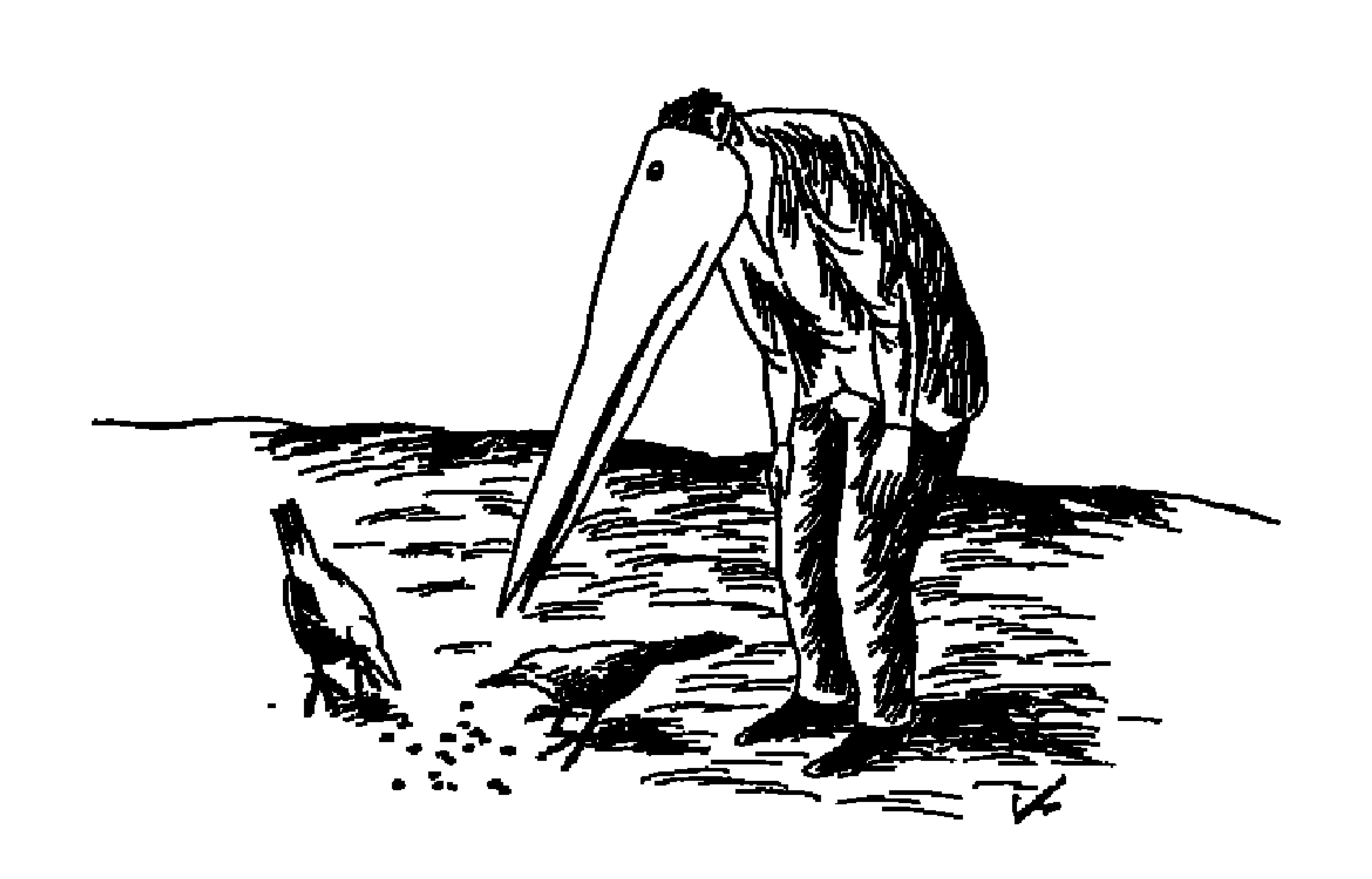
الناشـــر : ســـينا للنشـــر
المدير المسؤول : راويــة عبد العظيم

١٨ ش ضريح سعد - القصر العينى -
القاهرة - جمهورية مصر العربية -
تليفـون / فاكس : ٣٥٤٧١٧٨ / ٢٠٢٠

الاخراج الداخلي : إينــاس حسـني
الصـــف : ســـينا للنشـــر

الرسوم الداخلية
هدية من الفنان جوده خليفة
رسم الغلاف : من مجلة التمساح الروسية


سلوى بكر
أرانب
وقصص أخرى




سينا
للنشر

أرانب



أرانب

١

فتح أسامة عينيه الخضراوين الضيقتين لتصطدما بالمشهد المزمن لصباحه اليومي : الدولاب الخشبي القديم ذو الباب المكسور المـوارب، والكاشف عن ملابس زوجته القليلة بما فيها ثوب زفافها الأبيض المتشح بغبار سنين مضت، ثم المشجب النحاسي المثبّت على الحائط بجوار الدولاب وقد استقرت على علاقاته البارزة المشكّلة على هيئة أُسودٍ غاضبة بعض المناشف والألبسة، إضافة إلى سروال كالح سنجابي اللون، سيضطر لارتدائه عند توجهه لعمله بعد حين، لأنه نسي كيْ بقية سراويله التي غسلتها امرأته في اليوم الفائت، وبينما هو يتثاءب ويتمطّى بتكاسلِ مَنْ لم ينفض عنه غبار النوم بعد، جاءه صوت زوجته وهي تناديه بسعادةِ مَن أخذته المفاجأة المفرحة وتقول :

- أسامة، تعال، بصّ، كلّهم ولدوا.

نهض بحركة لا شعورية وجلس في السرير للحظات متأملاً صورته المنعكسة على مرآة باب الدولاب المواجه له، ليكتشف أن لا جديد تحت الشمس، فصورته المعتادة هي هي : وجه شاحب ممصوص بفكٍّ علوي بارز

قليلاً، وأنف وفير متكوِّر تكوُّرًا يجعله لا ينسى أبدًا قول الشاعر : «هذا جناه أبي عليّ»، ثم شعر مخملي غزير. طالما اعتقد أن الطبيعة جائرة إذ تجمعه بكل ما فيه من جمال مع هذا الأنف الشرير في وجه واحد. نطّ من مطرحه بهمّةٍ وحماس، وبخطوتين لا غـير صـار واقفًا إلى جوار حياة في الشرفة الصغيرة للغـرفة ينظر إلى صغار الأرانب، ذات الأعين المغمضة، واللحـم الأحمر الطري، وراح يتنهد برضا بعد أن أحاط بذراعه كتف زوجته العاري البارز من قميص نومها القطني الخفيف، المحلّى بزهرات برسيم رقيقة كُركُميّة اللون وقال :

– بسم الله ما شاء الله. اسم النبي أحسن.

ردّت زوجته حياة بامتنان قائلةً :

– عيني عليهم باردة، تسعة فوق، وستة تحت في القفص، والله ربنا أكرمنا بهم يا أسامة، ووسّع علينا، لأنه عالِم بحالنا وظروفنا.

لم يردّ وظل ساهمًا يفكّر وهو يحدّق في الأرانب الوليدة، التي راحت أمهاتها تبادله التحديق بعيون حمراء متوجّسة، ربما خوفًا على نتاجها منه. تفحّص القفص الخشبي الكبير ذا الواجهة السلْكية المكون من دورين ثم رفع رأسه محاولاً تقدير ارتفاع سقف الشرفة، ليعلن بعدها لزوجته :

– صاروا محتاجين لمكان أوسع من القفص. مشكلة والله.

نظر إليها نظرةً لا تخـلو من معنى، فقد كان يرغب فـي مفاتحتها بضرورة صنع قفص كبير في شرفة غرفة البنتين بدلاً من هذا الذي ضاق بهم، لأنها الشرفة الأوسع في البيت، لكنه آثر السكوت، فقد خشي الردّ الرافض الذي تلقّاه قبلاً، كما آثر تجنب المشاكل والمشاحنات مع البنتين،

خصوصاً الصغرى الناقمة على الحياة عموماً وعليه خصوصاً لتربيته الأرانب داخل الشقّة، والتي طالما نعتته بالتخلف وقلة العقل. لكنه رغم رأيها هذا ورغم سلاطة لسانها وأسلوبها العنيف الحادّ في الحوار معه ومع أمها، فقد كان يلتمس لها العذر، لأنها عصبيّة، صبيّة، تعاني من حساسيّة مزمنة في الصدر، تجعلها تلازم الفراش لفترات طويلة بين وقت وآخر. ورغم طبيعتها المحبّة للحياة، إضافة إلى أنها تحلم، مثل كل الذين هم في مقتبل عمرهم، بالحياة المريحة المرفّهة التي لا يقدر على توفيرها لها، مما يشعره دائمًا بالمرارة والحزن وقلة الحيلة في مواجهة الحياة. فكم من مرّة عبّرت له، وبطرق مختلفة عن رغبتها في مجاراة أندادها في الجامعة، بحيث تلبس مثلما يلبسون من ملابس أنيقة وتنفق بيسر. لكنها لا تحصل منه إلا على مصروف متواضع لا يتيح لها التصرف إلا في أضيق الحدود، وبما يسمح لها بالحفاظ على مظهر عادي بل وأقلّ من عادي في أحيان كثيرة تدفعها للامتناع عن الذهاب إلى الجامعة، مثلما حدث يوم نسيت إحضار حذائها من عند مصلح الأحذية، وقد تذكرت ذلك وقت العشاء، فذهبت بحذاء أختها لإحضاره، لكن الدكان كان قد أغلق، وتصادف أن اليوم التالي كان يوم الإثنين، عطلة الجزمجي، فاضطرت للبقاء خلال ذلك اليوم في البيت لأنه لا يوجد لديها حذاء آخر. وهو يلتمس العذر لها أيضًا، لأنها لا تدرك حقًا مدى صعوبة الحياة في هذه الأيام السوداء التي لا يعلم متى تنتهي وتغور إلا الله، ولأنها لا تدرك أيضًا كم يكلفه مصروفها المتواضع هذا من جهد وعرق، ولا تعرف أن هذه الأرانب «النيلة» - كما تصفها دائمًا - هي السرّ الباتع الذي هداه الله إليه، ليواجه به متطلبات الزمن الصعب، والغلاء المتعاظم،

وليجعل أسرته تعيش في مستوى يحول بينها وبين مدّ اليد بالسؤال.

تنهد برضا مفضلاً ألا يبدأ يومه بالتفكير في منغصات ونكدٍ لا لزوم لها، خصوصاً بعد أن استقبله بصباح نديّ ولدت فيه الأرانب.

ضغط براحته كتف زوجته شحيح اللحم، ثم طلب منها في امتنان وضع بعضٍ من النقود في صندوق نذور الجامع القريب، حمداً لله وتيمُّناً بالخلَف المبارك لأرانبه العزيزة، لكنها اعترضت على فكرته، لأنها قرأت أكثر من مرة في صفحة الحوادث بالجريدة عن سرقة واختلاس فلوس صناديق نذور الجامع، ثم إنها ارتأت الاكتفاء بقراءة الفاتحة للأولياء، ومنح أم حسن أرملة بواب العمارة المتوفي مؤخرًا ذكر أرنب كبير لتبرّ به عيالها الغلابة، فهي أولى بالهبة ويفعل الخير من صندوق النذور الذي لا تضمن صرف فلوسه في المفيد للناس. ولما أنهت كلامها قائلة له : «ثم إن أم حسن تحت رجلنا وطالعة نازلة تقضي الطلبات وجارية على لقمتها ولقمة عيالها، والوليّة مقدّرة المعروف المعمول معها» تنهّد وطلب منها إعداد طعام الإفطار، وأخبرها بنِيَّته في الحصول على إجازة مَرَضيّة من الشغل لمدة أسبوع يتفرغ خلاله للاهتمام بالأرانب وتوضيب قفصها، واحتفظ لنفسه برغبته في الحصول على إجازة سنوية بدون مرتب، ليجند نفسه بالكامل لتربية الأرانب ورعايتها.

وهو في طريقه إلى عمله داخل سيارة النقل العام، بدت له الحياة ذات مذاق مختلف في ذلك اليوم. فالجو لطيف مقبول، رغم حرارة شهر أغسطس المرتفعة، ورطوبته المعهودة التي تصيب الأبدان باللزوجة وبالتعرق السخيف الذي لا تُطاق رائحته المختلطة بروائح بصل الإفطار الفائحة من

زفير الركاب. حتى النيل بدا في عينيه أكثر بهاءً وعظمة عندما مرّت السيارة بجانبه في ذلك الوقت، ولا يشبه النيل الحزين المنكسر الذي اعتاد أن يراه كل يوم قبل ذلك. كاد أن يصفر بلحن أغنية الدنيا ربيع والجو بديع، لكنه آثر الوقار احتراماً لشعيرات بيضاء لا يمكن تجاهلها تناثرت بوضوح في شعر رأسه. كان أسامة يشعر خلال تلك اللحظات بما بات يؤكده لنفسه بين الحين والحين في الشهور الأخيرة، من أن الحياة بدأت تقبل عليه، وتفتح ذراعيها له، بل وتعطيه ضوء الأمان الأخضر، لأن جيبه صار لا يفرغ من الفلوس أبداً، كما أن المتطلبات الأساسية لبيته وعياله تجري تلبيتها في سهولة ويسر دون الصعوبات المعتادة التي كان يواجهها قبل قيامه بمشروع الأرانب. غمره شعور عارم بالرضا والسكينة، وبأن الله أكرمه فعوّض شقاه خيراً بعد أن كدّ وتعب وتقلّب في أعمال عديدة مارسها في النصف الثاني من أيامه بعد الانتهاء من عمله الصباحي بوزارة الصحة، وقَبِلَ القيام ببعضها على مضض، وبشعور لا يخلو من المرارة والضيق، فقد اضطر ذات مرة للعمل كبلاسير في سينما درجة ثالثة بإحدى المناطق الشعبية تعرض ثلاثة أفلام دفعة واحدة في كل حفلة من حفلاتها، وكان يتقاضى شهرياً خمسين جنيهاً لا غير مقابل إرشاد رواد هذه السينما إلى مقاعدهم المخصصة بصالة العرض. كان عليه خلال ذلك التعامل مع السمكرية والميكانيكية، وصبية المحلات، إضافة إلى البلطجية والشُّضلية وجميع الأصناف الواقعة من قعر قفّة المجتمع والتي رأى كل لون وصنف من أنواعها، خصوصاً في حفلات منتصف الليل التي كان يختتم بها عمله الممتد من حفلة الثالثة ظهراً! ورغم كل تلك الساعات الطويلة التي كانت تمر عليه وكأنها دهر من الزمان، والتي

يعود بعدها إلى بيته شاعراً بجسده وكأنه جوال ثقيل من الملح، وأنه لا يبغي من الحياة وحياة سوى الإلقاء بنفسه على الفراش والنوم حتى صباح اليوم التالي، على الرغم من كل ذلك الإجهاد والتعب كان يبيت ليلته راضياً مطمئناً، بل ويعتبر نفسه من المحظوظين لأنه وُفِّق في الحصول على عمل إضافي يُدِرّ عليه مبلغاً يساعد في زيادة دخله المحدود، لأن الخمسين جنيهاً بالإضافة إلى بضعة جنيهات أخرى تتجمع لديه بين الحين والحين كإكرامية من بعض رواد السينما كانت بمثابة النواة التي تسند الزير بالنسبة له، إذ ساهمت في تقليل عدد وجبات البصارة والعدس بنوعيْه الأصفر وأبو جبّة، التي كانت معدلاتها تتزايد اطراديًا مع اقتراب الشهر من نهايته. كما أنها لعبت دوراً حاسماً في تسديد القسط الشهري لسخّان المياه الذي كان لابد من شرائه رضوخاً لرغبة البنتين. لقد تحمل أسامة عمله هذا على مضض، وتعرف من خلاله على عالم لم يتصور يوماً وجوده في هذه الدنيا. كان يشعر بداخله بنوع من المهانة والألم، إذ اضطرته الظروف لمخالطة حثالة بشرية فاقت كل ما شاهده من أمثالها على شاشة السينما المصرية، إذ كان مع بداية عرض كل فيلم، يرى فيلماً آخر على الطبيعة، موضوعه اللواط والمخدرات، والتعليقات البذيئة الصارخة، ولقد اكتشف ذات ليلة أن دورة المياه القذرة، التي كانت رائحتها المنتشرة في جميع أنحاء صالة العرض تزكم أنفه وتساهم في تزايد شعوره بالمهانة، هي مسرح آخر للرذيلة، إذ كانت تجرى فيها عمليات داعرة سريعة بطلاتها بنات ليل من الدرجة العاشرة، وأبطالها من هواة النوع. ذات يوم، اضطر أسامة لترك هذه الوظيفة، بعد أن تجسدت له المأساة التي يحياها، إذ ضبطه زميل قديم له

في الوزارة، متلبسًا بذلك العمل الدوني أثناء الليل. صحيح أن زميله هذا كان يصطحب معه خلال الحفلة الأخيرة في ذلك اليوم فتاةً شابة صغيرة، خمّن أسامة من طريقة ملبسها المثيرة، وزينتها الصارخة وسلوكها الفج أنها واحدة من بنات الليل، لكن ذلك لم يمنع شعورًا بالخزي والمرارة اجتاحه وغمره، فلقد أدرك كم استخفّت الدنيا به، وهان حاله، فتصبب عرقه، وصار كمن صُبّ عليه سطل من الماء البارد، وارتبك، ثم راح يتلعثم وهو يتكلم مع الرجل محاولاً تبرير عمله، فقال مرة إنه يفضل تمضية الوقت في عمل مفيد بدلاً من الجلوس في المقهى ولوك سيرة كل من هب ودب، وقال أخرى إن صاحب السينما صاحبه وهو يعاونه من باب المودة وتمضية الوقت ليس إلا، ثم أقسم يمينًا ثلاثيًا أن يشرب زميله وصديقته الكازوزة على حسابه، وتسلل خـلال عرض الفيلم الثاني في الظلام وقـدم لهما كيسًا مـن اللب الأسمر وكيسًا مـن الفول السـوداني المقشر من بـاب الزيـادة في الكـرم ليتسليا ويستمتعا أكثر – رغم يقينه أنهما في غنى عن متعته هذه، فقد شاهد زميله أكثر من مرة وهو يضم المرأة إليه ويتحسس صدرها – لكن كل محاولاته لم تمكّنه من استعادة توزانه النفسي وشعوره بأن كرامته لم تهدر أو تُمسّ، فقد ظل يحس بأن ريقه ناشف كحطبة، وبأن شيئًا كالحجر يقف في زوره ويجعله لا يستطيع بلع ريقه، وقد اضطر أن يدخل دورة المياه ليغسل عينيه المغرورقتين بالدموع، فهو رغم كل شيء موظف حكومة محترم، وقبل كل شيء ابن ناس حميدي السمعة وينتمي إلى عائلة أصيلة طيبة، فأبوه هو رستم الليثي الذي كان والده ناظر زراعة الأمير طلعت باشا أحد أقرباء الملك فؤاد.

طافت بذهنه ذكريات مشروعه السابق لمشروع الأرانب، وهو مشروع تربية الحيـوانات المنزلية الأليفة وطيـور الزينة وأسـماكها، الـذي فشل فشلاً منقطع النظير، وكان مقره آنذاك شرفة الحجرة الداخلية التي تحتلها البنتان الآن. لقد اكتشف بعـد فترة قصيرة من بدايـة المشروع عـدداً مـن الثغرات الخطيرة فيه لا يمكن تجاوزها، فمثلاً كانت عصافير الكناري الملونة الرقيقة، تظل في حالة قلق بالغ، وتوتر عصبي دائم، بسبب حبسها داخل قفص ضيّق لا تكف عن التطلع إليها فيه، والتلمظ عليها، القطتان الفارسيتان الرماديتان، وذكر القط السيامي الوحيد، الذين كانوا خميرة المشروع. أما المعارك بين ثلاثي القطط من جانب، وفريق كلاب الجريفون واللولو الصغير من جانب آخر، فقد ظلت مستمرة لا تنقطع، وخصوصاً أثناء الليل بعد أن اتخذ فريقا ذوات الأربع المتناحران من جميع أنحاء الشقة ساحةً للقتال، وقد أدت تلك الحـرب التي لا تهـدأ أبداً إلى حدوث خسـائر لا يستهان بهـا في البيت؛ فبين فو.. فو، وخ.. خ، وهو .. هو، تكسّرت أوانٍ وأطباق من الزجاج والصيني، وفقدت حياة إلى الأبـد أعـزّ مـا تملكه منها، وهـو طبق الفاكهة المصنوع من الكريستال الوردي الذي كانت أمها قد ضمته إلى جهازها وقت زواجها بعـد أن اشترته مـن بائع سـاكسونيا جـوّال مقابل خمسين قـرشاً، بالإضافة إلى سترة رجالية قديمة من الصوف الكشمير كانت لأبيها. وقد تسببت تلك الحرب الحيوانية في تعرض أسامة لأشكال من اللّوْم والتوبيخ المهذب من قبل الجيران كانت تجيء على صورة مذكرات احتجاج شفاهية ينقلها أبناؤهم المبعـوثـون بصـفة رسـمية إلى البيت، وتأتي جميعـها بصيغة واحدة تقول «وحياتك يا عمي خلّي القطط تسكت والكلاب تبطل هوهوة حتى

نقدر ننام ونستريح» إضافة إلى ذلك، فقد اضطرت حياة لملاحقة مخلّفات الكلاب الموزعة على نحو عادل في كل ركن من أركان الغرف، في محاولة دوبة لمنع كارثة بيئية يمكن أن تحدث في البيت، وإلى جانب ذلك كانت تضطر للقيام برحلة يومية إلى السوق، لشراء نباشات الفراخ للقطط، وبقايا العظام من الجزارين للكلاب، لتعدّ لهم منها بعد سلقها وجباتهم اليومية اللذيذة، أما العصافير، فكان عليها أن تقدم لهم البُرغل وأن تعتنى بقفصهم وتنظفه، فلما فاض الكيل بها، ونفد صبرها طويل الحبال الذي لا ينفد عادة ببساطة، أعلنت حالة العصيان العام، فامتنعت ليومين على التوالي عن الذهاب إلى السوق لشراء الطعام للقطط والكلاب بحجة أن رجليها متعبتان وأنها لا تقوى على المشي، مما أدى إلى أن تأكل القطط والكلاب بقايا الخبز والطبيخ، بل ودفع الجوع واحدة من القطتين الفارسيتين إلى التهام قطع من الخيار المخلل على مضض، وهذا ما لم يقبله القط السيامي الذي رفض رفضًا قاطعًا النزول إلى الحضيض وفضّل الموت جوعًا على العيش في ذلة ومهانة فرفض أكل العيش واكتفى طوال هذين اليومين بصرصارين اصطادهما ليلاً في غفلة من الجميع. ثم إن حياة صعّدت من تمردها، فامتنعت عن طهي الأرز بالشعرية لأسامة الذي لا يمكنه أن يأكل أيّ طبيخ بدون أرز، وأيّ أرز بدون شعرية، ثم افتعلت خناقات صغيرة مع البنتين بخصوص عدم ترتيب حجرتهما، وترك الصابونة النابلسية تذوب في الماء بعد استحمامهما، فلما لم ينتبه أحد لما وراء ذلك كله أعلنت صراحة أثناء تناولهم الغداء أن الكيل فاض بها، وبلغ السيل الزُبى، وردت على زوجها المستنكف عن بلع اللقمة بدون أرز، بأنها ستترك البيت فوراً إذا لم تُجَرّ

عملية إخلاء سريعة للحيوانات خلال أربع وعشرين ساعة، ثم إنها شرعت تلمّ هدومها قبل الانتهاء من الأكل، وراحت تكدّسها في حقيبةٍ صاج كانت مرمية تحت السرير منذ سنوات بعيدة، بدت كواحدة من حقائب كنوز قاع البحار التي يعثر عليها صدفة، في الأفلام الأميركية القديمة.

لما تأكد أسامة من أن حياة راكية دماغها، وسادرة في غيِّها، تراجع وأقسم يمينًا بالثلاثة أن لا كلاب ولا قطط في البيت بعد ذلك اليوم، ثم أنه بعد أن شرب شاي ما بعد الغداء وقيّل لمدة ساعة، قام وارتدى ملابسه واصطحب الكـلاب معه لترحيلها إلى محـل متخصص في بيع الحيوانات والطيور الأليفة منها وغير الأليفة، كالقرود والصقـور وجميع أنـواع الكلاب ما عدا البلدي والأرمنتي على وجه التحديد، ربما مشاركةً منه في سياسة الانفتاح الاقتصادي، وعملاً على تنفيذ سياسات البنك الدولي المتعلقة بعدم تشجيع المنتج المحلي والصناعـات المحلية، أمـا القط السيامي المتعـالي الأنَوف، فهو الوحيد الذي جرى الاحتفاظ به في البيت تقديرًا لنظافته وعزة نفسه، ولكونـه ذكرًا لا خـوف عليه مـن العشار، بينما عـاشت القطتان الفارسيتان محنة حقيقية بعد قرار أسامة الجريء، إذ جرى بيعهما لسيدة من هـواة تربية الحمام، تَمْـقُـتُ القطط بالـوراثة، وتعتقـد أن تـلك الحيوانات هي المكمن المفضل للأرواح الشريرة، فكانت تحبسـهما بجوار أقفاص الحمام السوداني والمالطي التي وضعتها على سطح منزلها، فيما يفترض أنه كمين لأي فأر عابر تُسوِّل له نفسه الاقتراب من الحمام أو من الحبوب التي يُطعم بها. وقد عانت القطتان معاناة فظيعة بسبب الجوع الشديد والحبس، لأن هذه السيدة لم تكن تقدم لهما طعامًا يُـذكر مكتفيةً بالماء أملاً

في أن ينشطا طوال الوقت لصيد الفئران والهوام طالما بقيت معدتاهما خاويتين تصرخان من الجوع. هكذا استتب الأمن في البيت مرة أخرى بعد أن ظلت حياة في قواعدها سالمة، وقررت إهداء حوض أسماك الزينة – وهو آخر ما تبقى من المشروع – إلى ابن عمٍّ لأسامة، بمناسبة زفافه وتأثيثه منزل الزوجية، وهو القريب الوحيد الذي احتفظوا بعلاقة اجتماعية معه بسبب تقارب مستواه المعيشي من مستواهم. وقد ضربت حياة بهذا الإهداء عصفورين بحجر واحد، فتخلصت من الأسماك التي طالما أصابتها بتقزز لأنها تلتهم أبشع ما خلقه الله من وجهة نظرها وهو الدود، كما أنها سدّت ركنًا وأدّت واجبًا كان لابد منه مع ابن العم، بالإضافة إلى عدم تحميل ميزانية البيت أيّة أعباء جديدة لشراء هدية من السوق خصيصًا لهذه المناسبة.

كان أسامة يداخله إيمان عميق بأن مستقبله سيزدهر مع الأرانب، وأن تلك الكائنات الهادئة الوديعة ذات الفراء الأملس الناعم، هي الحل لكل مشكلات حياته، والنهاية السعيدة لمعاناته اليومية التي طالما واجهها منفردًا بعد وفاة أبيه وزواجه وإنجابه. فهو بدون أهل تقريبًا، بعد تقلص علاقاته الاجتماعية وانكماشها مع معظم أقارب أمه وأبيه لأنه موظف صغير محدود الدخل لا يمكنه مجاراة حياتهم الميسورة كتجار في السوق، ضالعين في أهمّ نشاط اقتصادي عرفته البلاد خلال السنوات الأخيرة وهو المضاربة في العقارات والأراضي. ومنذ أن تزوج أسامة وأنجب البنتين ومرتبه يتضاءل دومًا أمام تمدُّد الأسعار والمطالب الأسرية التي لا تنتهي. حتى أنه بات ينسى تمامًا مسرات زمنه الأول الصغيرة، والتي كانت تتلخص في الجلوس

على المقهى كل مساء ولعب الدومينو المفضل لديه على سائر ألعاب التسلية الأخرى. بالأحرى تخلى أسامة عن دفع نصف جنيه كان ينفقه على المشروبات بالمقهى يوميًا، بعد أن حسب حسبته ووجد أنه من الأفضل توفير خمسة عشر جنيهًا كل شهر، لشراء كيلو عنب بناتي، أو كيلو بلح أمهات، أو رُطَب لتبليع وجبة العشاء في الصيف، أو ابتياع البرتقال أبو سرّة، والموز الذي تحبه ابنته الصغرى في فصل الشتاء.

ظل سارحًا بأفكاره وهو واقف في السيارة، يرقب من شباكها أولئك المنتظرين عند كل محطة تقف فيها. كان يتأمل وجوههم المكدودة الشاحبة، ونظراتهم الميتة المنطفئة البادية من عيونهم بلا معنى. أحسّ أنهم كائنات تحيا كما الموتى، كائنات تأتي إلى الحياة وتغادرها وكأنها لم تكن فيها أبدًا، كان يدرك أنه يشبههم بشكل من الأشكال، إنسان بلا معنى، أتى إلى الحياة وسيتركها ذات يوم وكأنه لم يكن فيها أبدًا، فهو إنسان بلا لون، بلا طعم، برائحة، مثل كل أولئك الذين يراهم واقفين على المحطات ينتظرون وكأنهم لا ينتظرون إلا الموت، فكل ما فعله في هذه الحياة، هو أنه تزوج وأنجب ولا شيء أكثر من ذلك، لا شيء أكثر مما تفعله أية حشرة تافهة أو دودة صغيرة أو حيوان أعجم من مخلوقات الله الكثيرة. زفر بحرارة وهو يتحسر على حاله، فكم حلم أن يفعل شيئًا ذا معنى في الحياة، وكم تمنى أن يكون متميزًا لافتًا للانتباه على نحو من الأنحاء، مثلما تشوق لأن يحبّ ويعشق بعنف، حتى يصبح نادرةً يتندّر بها الناس، لكنه على أية حال، لم يتجرأ أبدًا على أن يكون قيْسًا، فهو مدرك لعدم وسامته. وحلم أن يكون مطربًا مشهورًا يدخل كل بيت ليحطم قلوب العذارى، لكنه لم يجرِّب الغناء على الملأ أبدًا،

ربمـا بسبب النتائـج السلبية الشديـدة التي كـان يحصـل عـليها دومًا كلما شرع في ذلك أثناء تلييف جسمه في الحمام، لكن شعورًا عميقًا بسوء الحظ ظل يداخله حتى اليوم، لأنه كان ذات يوم قاب قوسين أو أدنى من الشهرة، بل وكاد يقف على أولى عتبات القيمة والمعنى، لولا أمه جازاها الله ورحمها، فقد كان مولعًا أثناء دراسته الثانوية بتقليد أصوات الحيوانات، بل ربما كانت محاكاة أصوات القطط والكلاب والحمير والخراف والبط والإوز وحتى الأرانب، هي الهواية الوحيدة التي عرفها على مدى تاريخه البشري، وهي الهواية التي اكتشفها ذات يوم بالصدفة، إذ كانت لدى أمه قطة في البيت، راح ذات مرة يسلّي نفسه بتقليد مواء صغارها الذين وضعتهم منذ فترة، فلاحظ أن القطة قـد بـدأت تتنبه وترتبك وأخـذت تموء بـدورها بحثًا عـن صغارها، وهكذا بدأت تستهويه اللعبة، فراح يموء بين الحين والحين، مقلّدًا صوت القطط، وبالطبع اكتشفت القطة الأمر بسرعة، لكن أمه لم تصدق نفسها عندما سمعته، مثلما تعجّب كل الذين سمعوه يموء بعد ذلك، إذ أنهم لم يستطيعوا التمييز بين صوته وبين صوت أي قط شرس يستعد لمعركة، أو قط جائع يتسول، أو قط يطلب العشار في أنغام متنوعة من واعوا، واعوا، واعوا. ذات يوم اشترك أسامة الذي كان صيته في مجال التقليد الصوتي للحيوانات قد ذاع وانتشر في حفل مدرسي، وقدم فقرة فردية أدى خلالها العديد من أصوات المستأنس والوحشي، فحاز على إعجاب شديد وتصفيق حاد من جمهور الحاضرين الذين ظنوا أن حمارًا حقيقيًا يقف أمامهم على المسرح وينهق، فالتقاه واحد من الحضور يعمل في الإذاعة وقدّمه لصاحب برنامج جرّب حظك الذى أفرد له بدوره حلقة كاملة لاقت نجاحًا جماهيريًا

كبيراً، مما دعا الإذاعة إلى بثها عدداً من المرات بعد أن اكتشف مُعدُّ البرنامج عبر الخطابات الكثيرة التى وصلته، مدى عشق الجمهور لأصوات الحيوانات، وقد دهش أحد الخبراء في الإذاعة جداً لذلك، لأن الحمير تنتشر وتتوزع على جميع أنحاء الخريطة الوطنية، كما أن الإحصاءات تشير إلى أن نصيب كل مواطن داخل العاصمة هو أربعة من الكلاب والقطط، ناهيك عن بقية الأنواع الأخرى. وقد عرضت إدارة البرنامج فى الإذاعة على أسامة وقتها أن تقيده بسجل الممثلين العاملين فيها ليساهم في بعض التمثيليات الإذاعية المتطلبة لدراما تتخللها أصوات بعض الحيوانات لكن الغضب الشديد الذي قوبل به من أمه جعله يُحجم عن الاستمرار في طريق الحيوانات هذا، وذلك بعد أن وشت به قريبةٌ لأمه، استمعت إلى برنامج جرّب حظك، فأخبرتها أنه جرى ذكر اسم ابنها ثلاثيًا في البرنامج، وأن الجمهور ضحك كثيراً خصوصاً عندما قلّد صوت ذكر البط السوداني، والديك الرومي عندما ينفش ريشه ويُستثار، فقامت أمه بتوبيخه وزجره وقالت له أنه يرغب في تمريغ اسم العائلة في الوحل ويريد أن يجعلها مسخرةً للناس بعد أن تحول إلى مهرج كمهرجي السيرك، بل إن مهرجي السيرك أفضل منه لأنهم يُضحكون الأطفال ولا يقلدون أصوات الحمير والكلاب. وبعد ذلك عيّرته بخيبته في المدرسة وبلادته وذكّرته بشهادته الشهرية التي تكسف، وتغُمّ البال والخاطر، وبرسوبه المتكرر في مادة الأحياء وبالكعكة الحمراء المحيطة بالدرجة التي حصل عليها (ستة من عشرين)، ثم بكت وتحسّرت على خيبة أملها فيه، وفي الحياة، ونادت على زوجها العزيز (أبوه) كي يخرج من تربته ويجيء ليراها ويرى ما فعلته الدنيا فيها، وخيبتها التي مالها وصف. وانتهى

الأمر بأنها أخذت منه تعهداً شفاهياً وفي حضور القريبة التي ظلت تهدئها، وتنهره أيضاً، بألا يعود إلى فعلته هذه مرة أخرى وإلا فأنه لن يكون ابنها ولن تعرفه، وربما وجدها ميتةً ذات يوم بسببه، من شدة الغيظ وفقع المرار، إذا اكتشفت عودته إلى إصدار هذه الأصوات، وبناءً على تعليمات القريبة، قام وقبّل رأس أمه واعتذر لها. لكنه رغم كل هذه المرارات القديمة التي لا تفتأ تنبعث من داخله وتسمم روحه، ورغم كل الإحباطات الحياتية المتتالية التي لاقاها، مازال يشعر بأن ثمت أملاً في الحياة، أملاً في أن يكون ويتحقق ويصبح كائناً ذا معنى، والأمل الآن يبرق مجدداً بداخله من خلال مشروع الأرانب الذي بات يعوّل عليه كثيراً، ويرسم من خلاله حياةً طيبةً ميسورةً، ربما منحته فرصةً للاسترخاء والبحث عن المزيد من أجل التحقق والوجود على نحو أفضل.

راح يتذكر الأرانب بعيونها المستديرة البارقة المحدّقة، وكأنها في حالة اكتشاف ودهشة أزليّن تذكر حادث الولادة الجماعية الذي استقبل به يومه، واعترته حالة من التقدير والامتنان لتلك الكائنات الطيبة، المعطاءة بلا حدود، بل والرزينة المؤثرة للهدوء وعدم الإزعاج إذا ما قورنت بالدجاج والدّيكة أو الإوز والبط. صحيح أن نظراتها تبدو بلا معنى، لكن شكلها بالنسبة له لا يخلو من ظرف وطرافة وهي تلتهم البرسيم الأخضر النديّ في الصباح، أو عروش الجزر عند الظهيرة؛ كم يكون منظرها ممتعاً لعينيه عندما يختلط لون العشب الأخضر بألوانها البيضاء والسوداء والبُنية في تشكيلات بصرية رائعة.

كان يحلم خلال تلك اللحظات بترتيب حياته على أساس مشروع ينمو

ويكبر ويتخطى حـدود الشرفة والبيت، ينطلق بـه إلى عـالم رجال الأعمال المرموقين، مشروع للأرانب يتحقق معه مثلما لم يتحقق أبدًا من قبل. نزل من الأتوبيس وسار متجهًا إلى الوزارة حاملاً بيده كيسًا قماشيًا في داخله أرنبان كبيران. كان أسامة قد صمم ذلك الكيس بنفسه وحاكه من قماش مخلاة العسكر السميك، حتى لا يتسنى لأي إنسان التكهن بما فى داخله وقد تفتق ذهنه عن فكرة تبطين الكيس بالبلاستيك المتين ضمانًا لعدم تسرُّب أية فضلات أو أوساخ محتملة من الأرانب يمكن أن تلوث ملابسه عند حمله في الطريق.

في حوالي الساعة العاشرة والنصف، دخل أسامة غرفة المدير العام ليوقِّع طلب تحويله إلى الطبيب المختص ليحصل منه على الإجازة المرضية، وهو الطلب ذاته الذي كان قد سبق له توقيعه من رئيسه المباشر. وعندما رفع المدير رأسه الصغير عن الأوراق التي كان يقرؤها أمامه، واكتشف أن الواقف أمامه هو أسامة رستم موظف المواليد بقسم الإحصاء بالوزارة، هتف متسائلاً وهو يشرع في قراءة الطلب :

– خير يا أسامة، مالك ؟ كل يومين إجازة، مرة عارضة، ومرة مرضية، شكلك في منتهى الحلاوة والحمد لله.

رد أسامة بمسْكنةٍ وصوتٍ خفيض قائلاً :

– أبدًا والله يا أستاذ فهمي، من يومين والكلى متقلبة عليَّ، عاوز أعمل أشعة، لأني شعرت الصبح بحسرة بول شديدة، وحرقان غريب.

واصل المدير كلامه وتساءل :

– ألف بعد الشر عنك يا أخي اشرب عصير قصب على الريق واغلِ

حلف برّ، صحيح أنه مرّ جداً، لكنه ممتاز للكلى ويزيل التعب منها بسرعة. لكن لـي سؤال والله يـا أسامـة بخصوص الأرانب، لأني شفت عـبد الحميد الساعي الصبح ومعه كيس قماش كاكي، فلما سألته، قال لي إن الكيس فيه أرانب تخصُّك.

فوجئ أسامة بكلام المدير، فرفع يده إلى مؤخرة رأسه وتحسس خصلة الشعر المقاربة لقفاه في حركة لا إرادية يقوم بها عادة كلما شعر بأنه في ورطة ما، أحكم نظراته في عيني الرجل الجالس قبالته محاولاً تقصّي ما لديه من معلومات تتعلق بمشروع الأرانب، وراح يُعمِل ذاكرته أثناء ذلك، خشية أن يكون قد سرّب عن غير قصد خبراً بخصوصهم في الوزارة، لكنه تأكد أنه لم يبح لأي إنسان في العمل بكلمة واحدة عن ذلك، حتى ولا زميله المقرب إليه في قسم الإحصاء، شاعر العامية الرقيق الذي يجلس عادة إلى جواره، والمختص بحل الكلمات المتقاطعة... وحتى لو كان المدير قد تناهت إليه أية معلومات تخص الأرانب، فليكن ما يكون، وليذهب إلى الجحيم، لأنه سيتجاهل كلامه تماماً، ويستهبل حتى لا يفتح على نفسه باباً فيطلب المدير منه أرانب لا يسدد ثمنها، أو يضطر لمجاملته فيبيعها له بثمن أقل مما يبيعه للناس... ثم إنه إنسان لا يحب أن يعرف زملاؤه ورؤساؤه عنه أي شيء يتعلق بحياته الشخصية والعائلية خـارج العمل، لذلك أسعفته قريحته المستعدة لمثل هذه المواقف بكذبة سريعة استخرجتها من أرشيف أكاذيبه الكبير، المكتّسب عـبر سنوات طويلة مـن العمل فـي الحكومة، فكحّ وتنحنح قليلاً ثم قال :

– أبداً. لي قريب مريض في مستشفى الحميّات، قلت لروحي أعوده،

وأدخـل عـليه بأرنبين هـدية لأن لحـم الأرانب خفيف، ثم إنـه أفضل مـن الحلويات بالنسبة له، والحقيقة أني اشتريتهم من واحد معرفة، عنده بطارية أرانب فوق سطح بيت أمه، ودائمًا أتعامل معه لأن الجماعة عندي في البيت أفضل أنواع الظفر عندهم هو الأرانب، والرجل صاحبي أمين ومضمون جدًا، وبضاعته ممتازة. استمع المدير لمرءوسه على مضض، وكأنه لم يقتنع بما قاله، ثم سأله عن سعر كيلو الأرانب، فأجابه قائلاً :

– بستة وربع، أرخص من السوق في الحقيقة، ثم إنه مضمون من ناحية الأكل والنظافة، لأن الرجل، كل الوقت، يحط لهم البرسيم وعروش الجزر الأصفر... يعني أرانب ممتازة والله. تشتري وأنت مغمض عينيك.

أخيرًا وصل الرجل إلى بيت القصيد فقال :

– عال.. عال والله لو قدرت، تخليني أجربه يا أسامة، وتشتري لي منه اثنين أكون في غاية الشكر، يعني هات لي أرنبين كل واحد في حدود كيلو وربع، لأني أفضّل الأرانب الصغيرة. وبحركة مسرحيّة مدّ الرجل يده إلى جيبه كمن سيخرج نقودًا ليدفع، فبادره أسامة بقوله :

– خلّي الحساب يا أستاذ فهمي لما أجيب لك الأرنبين، كلها مسائل بسيطة، لكن أنا عـاوز أعرّفك أن صاحبي يبيع الأرانب عـلى حـالها، يعـني صاحية، وكل إنسان يتصرف بمعرفته فيها. رسم الأستاذ فهمي هرمين صغيرين بحاجبيه الكثيفين استنكارًا، فالمفروض أن يأتيه أسامة بالأرنبين مذبوحين ومسلوخين وبلا مصارين، كما درجت العادة، لكنه لم يتراجع عن طلبه بل عزّزه بطلب جديد من أسامة ألا وهو أن يميل في طريقه على أي فرارجي، ليذبح الأرنبين ويسلخهما، ويأتيه بهما جاهزين للطبخ.

تنهد أسامة وزفر، فهو يفضل بيع الأرانب حية كلما أمكنه ذلك حتى يقلل من تعب حياة في عمليات السلخ والتنظيف التالية للذبح، لكنه أصبح مضطراً لذبحهما له على أية حال، مثلما يفعل مع بعض الزبائن، فالرجل وقّع طلب الإجازة المرضية مشكوراً دون تعنت، والطبيب سيوافق عليها أيضاً ولابُدّ، بعد أن يقدم له الأرنبين على سبيل الهدية. «أرنبان مقابل إجازة لمدة أسبوع أقضيه في البيت متفرغًا لمشروع الأرانب، عظيم جدًا.» قال لنفسه وهو يتمنى حلّ مشكلة القفص خلال هذه الفترة وشراء علف من بقايا الدماء والأسماك المجففة يباع جاهزًا، عرف مؤخرًا أنه مفيد جدًا في نمو الأرانب بسرعة وزيادة وزنها، كما أنه يتمنى عمل مزلاج متين لباب القفص بدلاً من المزلاج الحالي الذي يستسلم لهبّات الهواء أحيانًا فينفتح بسهولة، ناهيك أنه يريد أن يريح جسده المنهك يوميًا من رحلة الذهاب إلى الشغل والعودة منه، وركوب السيارة العامة المزدحمة بالركاب. رجع إلى البيت ظهراً، بعد أن تمّت مهمة الإجازة بنجاح، فقد شكره الطبيب على لمسة الأرانب الناعمة والتمس منه أخرى مثلها في المرات القادمة لمساعده الذي يدوّن الإجازات في السجل، لكنه ما إن فتح باب الشقة، ودخل البيت حتى سمع زعيق ابنته الصغرى سامية وهي تصيح غاضبة :

– أرانب.. أرانب، عيشتنا أصبحت أرانب في أرانب، كل يوم الأكل بالأرانب، عاوزة سمك، فراخ، أي نوع من أنواع اللحم غير الأرانب، يا عالم حرام عليكم، كأننا في سجن أو معسكر جيش، والأرانب مقررة علينا وكأنها قدر.

ثم سمع صوت أمها وهي ترد عليها بغضب أشدّ وتقول :

- والله أصبحت غِلسة يا سامية، وسخيفة جداً، قاعدة تتبطّري على النعمة وتقولي أحب وأكره، ناس ياما نفسها في نسيرة أرنب أو نسيرة ظفر، وأنت لا حمد ولا شكر، قولي يا شيخة الجود في الموجود والحمد لله وإلا زالت النعمة من خلقتك، حرام أنه لا عاجبك العجب ولا الصيام في رجب.

ثلّث أسامة صراخهما من مكانه في مدخل الشقة مطالباً إياهما بالسكوت، لأن زعيقهما وصل إلى مدخل العمارة. خلع حذاءه ودخل غرفة المعيشة حيث ألقى بجسده المتعب على أول كرسي قابله، ثم أعلن للمتخاصمين في المطبخ أنه جائع، وطلب من حياة أن تسعفه بأية لقمة لأنه سيسقط من طوله من شدة الجوع. قام إلى التلفزيون فشغّله وعاد إلى مقعده ليتابع نشرة أخبار الظهيرة التي كان يجري بثُّها في ذلك الوقت، اكتشف أنها لا تختلف كثيراً عن نشرة اليوم الفائت واليوم الذي قبله، بل ونشرات الأخبار التي تُبثّ منذ شهرٍ مضى. حكّ رأسه مللاً ثم فك أزرار قميصه، وظل يتابع أخبار النشرة في الوقت الضائع حتى إعلان زوجته أن المائدة جاهزة لكي يأكل. لفت نظره أن مشهد قوات الطوارئ الدولية في يوغسلافيا المواكِب لكلام المذيعة، هو المشهد ذاته الذي رآه منذ يومين مصاحباً لخبر آخر عن المأساة ذاتها، جنود الأمم المتحدة بقبعاتهم سماوية اللون يهرولون ويركبون العربات دون أن يفهم المرء معنى لذلك. كان يفكر في الأرانب وفي إجازته المرضية التي كرّسها خصيصاً لرعايتها كما فكر في أرنبي المدير واكتشف أن كذبة صاحبه الذي عنده بطارية أرانب، كانت فكرة وجيهة يمكن أن يعممها داخل الوزارة، التي يمكن أن تصبح سوقاً ممتازاً للأرانب، وسرعان ما حسب حسبةً بسيطة اكتشف بعدها أنه لو باع عشرين

أرنبًا كل شهر في الوزارة، بمعدل وزن كيلو جرامين لكل أرنب، لَكَسِبَ ما يزيد عن ضعف مرتبه الشهري الذي يتقاضاه مقابل عمله في الوزارة بعد واحد وعشرين سنة خدمة.

أفاق أسامة من أفكاره وحساباته على بداية ندوة اقتصادية أعقبت نشرة الأخبار، تتناول المشروعات الصغيرة وتنميتها في الريف والحضر، كان ضيف الندوة المتحدث أستاذًا جامعيًا وخبيرًا اقتصاديًا ووزيرًا سابقًا، راح يتناول سياسات الأمم المتحدة في تمويل هذا النوع من المشروعات البيئية اللازم لنمو بلدان العالم الثالث والذي يعتمد على أساليب إنتاجية محلية ولا يحتاج إلى تكنولوجيا متقدمة ورأس مال كبير. أغلق أسامة التلفزيون وسار إلى زوجته التي بدأت فى إضافة الثوم المقلي إلى الملوخية وقال لها :

– تعرفي يا حياة. طقّت في دماغي فكرة، لو تحققت، نكون وصلنا فعلا، فلو قدرنا واشترينا أية أرض صغيرة، نعمل فوقها مزرعة أرانب، نقدر بعدها أن نطلب أي قرض صغير على سبيل المساعدة من الأمم المتحدة.

حركت حياة المغرفة في وعاء الملوخية لتقليبها، ثم تذوقت بها بعضًا من الطبيخ، فلما اطمأنت إلى درجة ملوحته، نظرت إلى زوجها من تحت إلى فوق وقالت له باستخفاف :

– يعني الأمم المتحدة فاضية لأمثالك يا أسامة، معقول تعطيك الفلوس لأجل بطارية الأرانب.

أخذ أسامة يشرح لها بحماس ما تابعه في ندوة التلفزيون، وكيف أن الخبير المتحدث، أكد على ضرورة المشروعات الصغيرة، صحيح أنه لم يذكر

الأرانب بالاسم، لكن لِمَ لا، أليس ما يقوم به في الشرفة من تربية الأرانب، يعتبر مشروعًا صغيرًا أيضًا، قابلاً للتطوير بحيث يسمح بالحصول على قرض.

واصلت حياة تقليب ملوخيتها وهي تستمع بأذنين نصف مفتوحتين لما يقوله رجلها، كانت تشغلها فكرة واحدة هى أن أسامة عاد إلى عادته القديمة في بناء مشاريع هوائية وهمية لا وجود لها إلا في أحلام يقظته. كانت تعتقد أنه مريض مرضًا خفيفًا بجنون العظمة ربما كان مرجعه أصالة عائلته، والحياة الطيبة التي عاشها في طفولته فى بيت جده ناظر الزراعة، والتي كان يحب أن يتذكر بعضًا من تفاصيلها بين حين وآخر، فيقص عليها كيف كان يأكل بملاعق من الفضة الخالصة، وكيف كانت قمصانه الداخلية من الحرير الهندي المفتخر، وكم ركب عربة جدِّه ذات الأفراس الأربعة المُطهَّمة. وكانت حياة في البداية تظن أنه يبالغ بعض الشيء عندما يسترسل في مثل هذه الذكريات وأنه يضيف من عنديَّاته وقائع لا أساس لها قط، لكن الطريقة المؤثرة التي كان يتحدث بها عادة، وحماسه الشديد، جعلاها تقتنع في النهاية بصدق ما كان يقصُّه عليها.

ظلت تستمع إليه بلا مبالاة، رغم الجديَّة واليقين الكبيرين اللذين تمتلئ بهما نبراته، ولم تنتبه إلى نظراته المتلمظة المتطلعة إلى ما يحيط بمعصمها الأيمن من ذهب. السواران اللذان كانت قد اشترتهما بعد أن دبَّقت قليلاً من مصروف البيت، وأضافت ما ادخرته من هذا إلى فلوسها المتحصلة من نصيبها في ميراث أبيها.

تابع أسامة شرح وجهة نظره لحياة في محاولة جديدة

لإقناعـها فقال :

– لو تمكنا ياحبيبتي من شراء قيراطين بالعدد، حتى لـو فـي أرض صحراوية وبنينا مزرعة أرانب، تبقى خطوة عظيمة. لأن الأمم المتحدة حسب كلام التلفزيون تقبل في هذه الحالة أن تعطينا التمويل. لكن في وضعنا الحالي صعب أن نتكلم ونقول والنبي يا أمم يا متحدة مولّي لنا مشروع أرانب في البيت. تبسّمت حياة دون أن تدرك ما يرمي إليه وعارضته بقولها:

– طيِّب، عظيم، لكن القراريط يا سيدي تلزم لها فلوس! وانت عارف أنك يد وراء ويد قدّام، وعمّال تقول ياهادي استر، هل تعرف أن فاتن بنتك محتاجة إلى درس كيمياء حيوية، والدكتور طلب منها ألفين من الجنيهات، ألف مقدم وألف عند نهاية الحصص، شعر أسامة أن مفاصله سابت قليلاً، فكل ما ادّخره بعد تعبه وشقاه في مشروع الأرانب لا يزيد عن ألف وخمسمائة جنيه لا غير، وهو يفكر خلال هذه اللحظات جديًّا في شراء الأرض، وفي مصارحة حياة بضرورة بيع سواريها، ليضيف ثمنها إلى مبلغه المدّخر ويشتري بما يتحصل القيراطين إن أمكنه ذلك.

ردّ على زوجته بغيظ :

– بلا دروس كيمياء حيوية بلا كلام فارغ، المفروض أن تنتبه البنت إلـى دروسها وتذاكر كيمياء حيوية وخراء. يعني هـي بعد مـا تتخرج مـن الجامعة سيصبح وضعها أفضل ؟! الأمور لن تختلف في أي شيء يا أختي، لأنه مستحيل أن تشتغل بسرعة؛ الدنيا مقفلة والبطالة مخلّية الشباب على قفا من يشيل في كل مكان.

تركت حياة ما بيدها، وضربت كفًّا بكف معلنةً غضبها من كلامه

وتساءلت إن كان يريد لابنته أن تترك الجامعة ليستريح، أو أن تظل ترسب كل سنة بسبب الكيمياء الحيوية التي تعيد دراسة السنة النهائية للمرة الثالثة من تحت رأسها، وأن البنت لو كانت حصلت على الدرس الخصوصي عند الأستاذ إيَّاه من أول سنة، لكانت متخرجة من الجامعة قبل عامين.

لم يعرف أسامة بماذا يرد عليها، كان مستوعبًا منطقها ومقتنعًا بصحته لكنه كان يشعر أيضًا بضيق بالغ، وعذاب من ينفخ في قربة مقطوعة دون جدوى، فطالما حلم بالتقدم خطوة إلى الأمام، وتمنَّى التغيير والانتقال بحياته وحياة أسرته الصغيرة من عالم الشقاء والمعاناة إلى حافة الراحة والأمان. لقد حصل على إجازة مرضية لمدة أسبوع نوى توضيب قفص الأرانب خلاله، فهو يريد لمشروعه الصغير أن يكبر وينطلق، بل إنه يحلم دائمًا بالاستقالة من عملة نهائيًا والتفرغ تمامًا للأرانب التي اكتشف أنه يمكنه لو رعاها واهتم بها كما يجب أن يحصل منها على مدخول شهري كبير، لا يمكن مقارنته بأي حال من الأحوال، بما يتقاضاه من وزارة الصحة، ولو أن لديه الإمكانات والمكان الملائم. لتوسَّع في مشروعه فورًا، ثم إن ما عرفه اليوم من ندوة التلفزيون بخصوص الأمم المتحدة، نبَّهه وحمَّسه للغاية وأشعـره بضرورة التعامل مع مشروع الأرانب بجدية أكثر؛ فهو مشروع ذهبي يدر أرباحًا مجزيةً لا بأس بها.

سرح أسامة بأفكاره وذهب بعيدًا مثلما يفعل عادة كلما تمنى أمنيةً من الأمنيات، تصوَّر نفسه وقد تملَّك قطعة أرض أقام عليها مزرعة أرانب ضخمة وفقًا للأصول العلمية الحديثة في تربية الأرانب، مزرعة يسميها «الأرنب الذهبي» وتصوَّر نفسه جالسًا خلف مكتب فخم في مبنى الإدارة

يتكلم في إعلان تلفزيوني عن إنتاج المزرعة بصفته صاحبها وراعيها. صمّم أسامة إعلانًا سريعًا عن المزرعة، ثلاث حسناوات شقراوات يحطن به وهنّ يتراقصن ويتمايلن، بينما هو يتحدث عن مزايا لحوم الأرانب اللذيذة ثم يعلن أن سرّ السعادة يكمن في تذوق لحم الأرانب الذهبي، وبعد ذلك تقول أجمل الفتيات في لقطة مكبّرة تبرز شفتيها المثيرتين وأسنانها الوضاءة وأكبر مساحة ممكنة من صدرها الممتلئ أن الأرنب الذهبي هو لغة العصر وسمة التطور.

أفاق أسامة من سرحانه على صوت زوجته وهي تقول :

– أسامة، أنت نمت وانت قاعد في مطرحك، يا الله قم، غيِّر هدومك واغسل يديك لأن السفرة جاهزة.

رنّ جرس الباب، وذهبت سامية لتفتح وعادت بصحبة فتحية بنت الجيران، وقد جاءت كمبعوثة من أمها وحاملة لهدايا أبيها العائد من عمله في الخليج منذ يومين.

هنأتها حياة بسلامة وصول الأب، وشكرتها على الهدايا، مؤكدة أنها لابد أن تزورهم مع أسامة لتحية العائد، فلما انصرفت الفتاة فتحت سامية كيس الهدايا، لتجد بداخله قطعة قماش بورْدات كبيرة ذات ألوان فاقعة، ونصف كيلو شاي خشن، ومثله تقريبًا حبّ فلفل أسود.

تنهدت الأم بارتياح شاكرةً الجيران أصحاب المعروف، ولفتتهم الكريمة ثم إنها توجهت لزوجها قائلةً :

– ربنا يخلّيه لعياله، سفره إلى الخليج حَلّ لهم مشاكل ما لها حصر. بكره ربنا يكرمنا، و فاتن تتخرج وتشتغل مُدرّسة وتسافر لبلد من البلاد..

والنبي يا أسامة، هات من القفص فردتين لنردّ هديّة الحاجّة أم فتحية.
نظرت سامية بتأفف إلى هديّة الجيران وقالت :
– لون القماش فلاحي جدًا، مستحيل أحطُّه على جسمى، ثم إن الألياف الصناعية فظيعة في الحرّ، إياكِ يا ماما تقولي فصّلي القماش يا سامية، أنت وأختك.
انفجرت الأم في البنت التي لا يمكن إرضاؤها أبدًا وقالت :
– يعني نرميه، نرمي القماش، أقول للناس ردّوه لأنه ألياف صناعية وذوقكم بلدي. خلي عندك ذوق، وحطّي في عينك حصوة ملح، كفاية إن الرجل فكّر في هدية لنا.
خرجت البنت من المطبخ وهي تبرطم حانقةً، وخرج أبوها إلى الحمّام ليغتسل بعد أن تابع المشهد كله دون تعليق لأنه لا يفهم في القماش كما تقول زوجته. لكنه شعر بالضّيق بسبب المشاحنات التي لا تنتهي بين امرأته وابنته الصغرى. كان يجد الأم محقّةً دائمًا، ويعذرها كثيرًا نظرًا لصعوبة الحياة المتزايدة، التي تضطر لمواجهتها يومًا بعد آخر، وكم قدر لها محاولاتها الدوبة لجعل حياة ابنتيها تسير على نحو أفضل، لكنّه كان يُكِنُّ إعجابًا خاصًا لصغيرته المشاغبة، فهي متمردة، ذكيّة، ترفض الانصياع للأمر الواقع، وتنشد الاختلاف عن الآخرين دائمًا، وكم تمنى لو كان مثلها في أي يوم من الأيام وامتلك هذه القدرة الهائلة على المحاجّة والرفض، لكنه لم يكن مثلها أبدًا، لم يستطع قول «لا» في أي وقت من أوقات عمره، لم يقل «لا» لأمه أبدًا، حتى عندما كبر ونضج ودخل ديوان الرجال، وأصرّت على تزويجه من حياة، لمجرد أنها سترث عن أبيها ربع بيت قديم في حي المنيرة،

فحياة لم تكن في يوم من الأيام فتاة أحلامه، فهي قصيرة بثديين صغيرين، بينما هو يفضّل، ومازال، المرأة الريّانة ذات الصدر الضخم التي تدخل ضمن برنامج أمانيه الصغيرة التي يحلم بتحقيقها يومًا ما، ليفعل ما كان يفعله أحيانًا في صدر شبابه الأول حين كان يجلس في المقهى ويتابع الرائحات والغاديات من النساء بعينيه، ثم يغمز لواحدة منهن ذات صدر سخي وأرداف وافرة، ويتعقبها في الطريق ليغرق مسامعها بأرق كلمات الغزل والغرام، حتى تضعف وتلين وتوافق على لقائه في كازينو الأرنب السعيد.

لكنه رغم عدم إعجابه بحياة، كيّف نفسه معها، وبات يتقبلها شيئًا فشيئًا، خصوصًا أنها تلبي رغباته دائمًا، ولا غبار عليها كأم رءوم وطباخة ماهرة، وسيدة بيت تعرف كيف تحبّق وتدبّق وتواجه ملمّات الغلاء. لكن كل ذلك لم يمنعه من أن يردد لنفسه بين الحين والحين، أنه من الصعب، أن يمضي المرء حياته مع امرأة واحدة فقط - بالطبع لم يفكر أسامة في أن المرأة يمكن أن تنظر للأمر بمنظاره أيضًا - وهو على أي حال، دجن نفسه على حياة، ولم يقل لها «لا» أبدًا، ربما لأن هذه المرأة لم تمنحه الفرصة ليقولها لها ولو مرة واحدة بسبب أسلوبها الناعم، وطريقتها المرنة في إقناعه بالأشياء، وربما لأنه شطب هذه الكلمة من قاموسه منذ زمن بعيد ضمانًا لأن تمضي الحياة به في أمان دون التعرض لمشاكل أو متاعب المواجهة الرافضة مع الآخرين. هو لا يستطيع أن يقول «لا» مثلما تقولها ابنته ببساطة ويسر، حتى في العمل، لم يقل لرؤسائه «لا»، في أية مناسبة، بل هو يظن أنه لم يعد يقرأ هذه الكلمة منذ سنوات مضت، لا في الصحف ولا في

المجلات، ولم يعد يسمعها من الناس إلا نادراً، أما يده فلم تخطّها بقلم منذ زمن قد يعود إلى أيام دراسته الابتدائية عندما كان يهتف مع التلاميذ ويقول «لا للاستعمار» ثم يكتبها عند عودته إلى الفصل عشرين مرة في الكراس. حتى في الانتخابات العامة التي يمقتها ولا يجد أدنى ضرورة لها، بل ويشعر أنها مسرحية سخيفة، يتكرر تمثيلها بين الحين والحين، لم تخطّ يده كلمة «لا»، إذ كان مضطراً لقول نعم، لأنه يشارك فيها عادةً بناءً على تعليمات رؤسائه في الوزارة، فيذهب إلى المقر الانتخابي وكأنه أرنب صغير ممسوك قسراً من أذنيه لا يقوى على الإفلات، ويكتب منصاعاً الكلمة التي حفظها عن ظهر قلب وأجاد قراءتها وكتابتها «نعم».

هيّأ أسامة نفسه لالتهام وجبة غداء مكونة من أرز وملوخية بالأرانب، وهي الوجبة التي كانت حياة قد قررتها على الأسرة منذ بداية مشروع الأرانب بمعدل أربع مرات أسبوعياً طوال شهور الصيف، لم يكن أسامة يضيق بهذه الوجبات على الإطلاق، فهو مستعد لأكلها على امتداد أيام الأسبوع، طالما أنها الوجبة المغذية الممكنة المتاحة للأسرة، لكن قلقاً بدأ يداخله بسبب تأفف وتذمر ابنتيه منها، خصوصاً الصغرى ذات اللسان السليط التي لا تكف عن التهكم والسخرية فتقول إنها كلما تطلعت إلى المرآة تشعر بأن أذنيها تكبران وتنموان للأعلى كآذان الأرانب، أو تنادي على أختها لتدعوها إلى الغداء كلما وضعت أمها طبق الأرانب المحمرة على المائدة قائلة :

– يا الله يا فاتن، تعالي، ابتدأ فيلم أفواه وأرانب.

كان أسامة يخشى أن يفقد أعصابه ذات مرة ويلطمها على خدها

بسبب سخريتها السمجة هذه التي تمتد لتنال من مشروع الأرانب ذاته في كثير من الأحيان، فتطلق عليه مرة «فشروع الأرانب»، ومرة أخرى تسمّيه : «مشروع الخطة الأرنبية الأولى». غير أن أسامة يحاول التحكم في أعصابه عادةً ليقينه أن الفتاة لا تدرك الآفاق المنتظرة من وراء هذا المشروع، والآمال التي يعقدها عليه، حتى ترفع الأسرة مستوى معيشتها وتعيش في المستوى الإنساني اللائق، وكان يلتمس لها العذر كذلك، لعلمه أن البنت المسكينة، ليست إلا واحدة من أبناء الجيل الجديد الضائع الذي لا يعرف كيف يتحمل المسئولية ولا كيف يتحايل لمواجهة أعباء الحياة، وهو جيل يرغب أيضاً في الكسب السريع دونما جهد أو كفاح يبذله في سبيل الوصول إلى ما يريد لأنه يرى الكثيرين في كل مكان يعتلون الأمواج بسهولة ويسر، ويحققون أهدافهم عبر صفقات سريعة وأعمال وهمية فاسدة، باتت هي الأسلوب المهيمن على دنيا الأعمال.

جلس إلى طاولة الطعام، وراح يأكل ملتهماً الجزء المفضّل لديه من الأرنب ألا وهو المتن، فكّر وتردّد كثيراً قبل أن يستجمع شجاعته ويصارح زوجته برغبته في بيع سواريها الذهبيين وشراء قيراطين من الأرض، قال لها أنه سيعوضها عنهما فيما بعد، عندما يكبر مشروعه ويزدهر ويحصل على مساعدة الأمم المتحدة، رجاها من كلّ قلبه أن تطيل بالها عليه وتتسلّح بالصبر ولن تندم أبداً، وذات يوم سعيد سوف تتذكر كلماته هذه بعد ما ترى بأم عينها حياتهم وقد شملها العزّ وجرى الخير فيها كل مجرى من المكاسب الهائلة التي ستعود عليهم من المشروع، الذي سيفتح بدوره آفاقاً بلا حدود لمشروعات مستقبلية أخرى ربما جعلتهم من أصحاب الملايين.

راح أسامة يعدّد لامرأته بعضًا من أسماء أشهر رجال الأعمال في المجتمع ممن بدأوا من الصفر وبرأسمالٍ لا يُذكر، مثلما يفعل هو نفسه الآن، لكنهم نموا وكبرت أعمالهم بفضل شطارتهم وذكائهم ومثابرتهم على العمل، ثم لوقوف زوجاتهم إلى جانبهم ومؤازرتهن لهم، فهذا بدأ بكشك سجائر صغير بميدان العتبة الخضراء، لكنه تحول الآن إلى صاحب واحدة من أهم ثلاث شركات في البلد للاستيراد والتصدير، وذاك بدأ بفرش فاكهة على أول ناصية بشارع عرابي، وصار الآن صاحب أكبر مصنع لتعليب الفاكهة وحفظها في الشرق الأوسط، والثالث...

ظل أسامة يتابع كلامه لحياة في محاولة دءوبة لإقناعها بالجدوى الاقتصادية العائدة عليهم من بيع ذهبها، ولم يترك لها فرصة لتعترض أو تناقشه، بل أخذ يلامس وركها القريب بفخذه في حركة غزلية غير عفيفة، ثم قال :

– بكــره لما الفلوس تــدور فــي أيدينا يــا حيــاة نـعمل – إن شاء الله – أول مشروع مـن نوعه فـي مصر وربما فـي أفريقيا كلها. مشروع فكّرت فيه لـمّا كنت في الحمّام قبل الأكل وهو مشروع الأرانب المعلّبة.

– أرانب معلّبة ؟ تساءلت حياة وهي تكسر بأضراسها دماغ الأرنب المحمّر، حتى تستخرج مخّه الصغير من داخله وتلتهمه بتلذذ، بينما نظرت في استنكار إلى سامية التي أطلقت ضحكة ساخرة، دفعت أسامة لأن يبتسم رغمًا عنه، ويتابع كلامه بحماس قائلاً :

– إفهمي يا بنت يا عبيطة، أي نعـــم أرانب معـلّبة، أرانب مفـرومـة معلّبة، أرانب معلّبة سريعـة التحضير، أرانب بالملوخيـة الخضــراء، كبـد

وقـوانص أرانب معـلّبة، أرانب معـلّبة بصلصة الطماطـم، أرانب معـلّبة بالمايونيز، أرانب معلّبة لمرضى السكّر والرجيم، ما رأيكم ؟

كان يتحدث بحماسٍ وانفعالٍ بالِغَيْن، فرفع طبقه دفعة واحدة إلى فمه ليشرب قليلاً من الملوخية دون أن يستخدم الملعقة، وراح ينظر إليهما ليرى مدى تأثير كلامه عليهما، فلاحظ نظرات القرف وعلامات الاستياء على وجهها، لكنه لم يدرك وهو في قمة استغراقه فيما يقول، أنها كانت متأففةً بسبب التهامه الملوخية بهذه الطريقة، فاستمر في خطابه لهما قائلاً :

– فكرة جهنمية والله العظيم يا حياة، بيعي الأساور واسمعي كلامي، لأننا لابد أن نتحرك ونكبر، ونتحول إلى مشروع بالمعنى الحقيقي، فالزمن زمن شطارة، ولازم أن يفكر الإنسان ويشتغل، والدنيا قدّامنا مفتوحة، لازم نفتح لها صدرنا، ونجازف فيها بالحكمة والعقل.

لـم تعـرف حياة بماذا تـرد عـليه، فأسامة قـادر على التأثير عـليها، وإقناعها دائمًا، مثلما هـو قـادر عـلى إرضائها. إنها تحبه وتؤمن بـه، بـل وتشعر بدرجة من الدُونية تجاهه، وتعتقد أنها بزواجها منه أعطتها الدنيا أكثر مما تستحق بكثير، فهو من عـائلة محترمة ذات اسـم، وجـدّه ناظـر الزراعة، إضافة إلى أنه وسيم، طويل، عريض، أبيض، يسدّ بجسده الباب، بل هو أوسم رجل في الدنيا من وجهة نظرها. أما هي، فشحيحة الملاحة، وأبوها كان مجرد صاحب محل لكُلف الخياطة يبيع الأزرار والخيطان وقماش البطانات والترتر وخرْج النجف والإبر والدبابيس، ورغم أن حياتها معه لم تكن ميسورة أبدًا، وأنها كانت تغتاظ منه كثيرًا بسبب شخصيته اللامبالية بشئون البيت عندما كانت تناقشه فيها، ورغم فشل كل مشروعاته

السابقة إلا أن حياة كان يداخلها شعور غامض بأن زوجها لابد أن يُوفَّقَ وينجح ذات يوم بعد أن يُعَـوِّضَ الله صبره وصبرها خيراً، فهو طيِّب ومجتهد، وفي حاله تماماً لا يضمر شراً لأي مخلوق كان. لكن المشكلة أن السوارين هما كل ما خرجت به من الدنيا، بعد أن اشترتهما بثمن غال هو حصتها من بيت أبيها، الذي بيع بثمن بخس لأن البلدية أدخلته ضمن خريطة إعادة تنظيم الحي وتوسيع الشارع الواقع فيه.

بدا كلامه عن المشروع مثيراً لها، ويحمل الكثير من الآمال العريضة، لكنها كانت متوجسة، ولا تدري ما الذي يجب أن تفعله على وجه التحديد، أتوافقه أم ترفض ؟ هي تخشى خسران الجلد والسَّقط إذا ما جارته وباعت السوارين، لكنها أيضاً كانت لا ترغب في كسر خاطره، وإشعاره بأنها تخلَّت عنه وقت احتياجه لها، بدت كالموزَّعة بين نارين، لكنها في النهاية قالت لروحها فليكن ما يكون، وسلَّمت أمرها لله، وقبل أن تجيبه زفرت بحرارة، وطرقعت أصابعها في قلق ثم قالت :

– طيب يا سيدي، الأمر أمرك والشور شورك، لكن وحياة العيال ومعزَّتي عندك، فكِّر وتأنَّ قبل أية خطوة، لأن الزمن صعب، والدنيا غلاء، والفلوس عمَّاله تطير وكأنها عصافير.

أعلنت سامية غضبها الشديد، ودفعت بكرسيِّها بعيداً عن المائدة وقالت دون أن تكمل مضغ اللقمة التي في فمها :

– إياكِ يا ماما تبيعي الأساور. لو فكَّرت في بيعهم في أي وقت حطِّي الفلوس في البنك. فكِّري في الخسارة لأنك لن تُحصِّلي من بيعهم لا أبيض ولا أسود وأنا حذَّرتك والسلام. غلى الدم في عروق الأب من فرط غيظه

وغضبه من تلك الوقاحة الساخرة التي تكلّمت بها ابنته. فكّر أن يهبّ من كرسيّه ويلطمها على صدغها، وأن يقلب المائدة كلها على رأسها حتى تتسربل بالملوخية تماماً ولا تعرف مطرح رأسها من رجليها، لكنه وكما يفعل عادة في مثل هذه المواقف، ضبط نفسه، وانسحب بهدوء إلى الداخل معلناً عن رغبته في النوم.

نعس ونام وحلم أثناء نومه بالأرانب وبسامية تربت عليه وتعلن أسفها واعتذارها عما بدر منها تجاهه، وتهديه سلسلة مفاتيح فضيّة يتدلى منها أرنب ظريف، وبمديره في الوزارة وقد تحوّل إلى أرنب صغير قام بحمله في حقيبة الأرانب إياها، ليسلّمه للفرارجي ليذبحه ويسلخه... أرانب كبيرة على الطريق ذات أثداء ضخمة تبتسم وتتمايل في دلال وأسامة يحاول الهجوم عليها واحتضانها لكنها تزوغ منه بسرعة... نشرة الأخبار في التلفزيون وهو يتابعها، فيكتشف أن القوات الدولية في سراييڤو كلها عبارة عن أرانب صغيرة ترتدي الأزرق التقليدي للأمم المتحدة وتعتمر قبعات سماوية جميلة... حياة تتحول إلى أرنب ذهبي ضخم وتقول له بنعومة : الأمر أمرك يا أسامة، لكن فكّر والنبي واحسبها قبل عمل أية خطوة.

هبّ أسامة من نومه قلقًا، تقلّب في الفراش، فوجد حياة ممددة على جنبها إلى جواره، مقيّلة هيّ الأخرى، أحاطها بذراعه والتصق بها في حميمية أدهشتها، فاستدارت ليكتشف أنها لم تنم بعد فقال لها :

– الثوم في تقلية الملوخية كان زيادة بعض الشيء، أصلي حلمت مجموعة أحلام غريبة ملخبطة، مالها أول من آخر.

ردّت حياة وهي تتثاءب وتخلص نفسها منه بلطف :

- خير.. اللهم اجعله خيراً، كنت غطِّ نفسك بغطاء خفيف قبل النوم.

ثم طلبت منه إعداد شاي العصاري، وأن يناديها لتشربه معه عندما يجهز، حتى تتعس قليلاً لأنها لم تنم بعد.



٢

بدا كل شيء غير عـادي في حياة أسامة صباح ذلك اليوم المشئوم، فقد وصل الوزارة متخلفًا بضعة دقائق عن موعد العمل الرسمي، بسبب تأخّره في النوم حتى قرب الفجر، بعد سهرة طويلة أمضاها بصحبة أسرته في عرس فتحية بنت الجيران. كان قد ارتدى ملابسه على عجل، وترك امرأته غارقة في النوم دون أن يوقظها لتعدّ له طعام الإفطار كما جرت العادة، كما أنه لم يقم بطقسه الصباحي الدائم المتمثل بإلقاء نظرة سريعة على الأرانب في القفص. وأثناء وقوفه على محطة الأتوبيس تذكر أنه نسي ساعة يده التي يحرص على ألا ينساها، ورأى في شرفة المنزل المقابل للمحطة غسيلاً منشورًا أسود اللون يغطي الحبال كلها، فانقبض قلبه وتطيّر، وزاد في ضيقه مرور ذلك الشحاذ المجنوم بأطرافه المتآكلة وأنفه المشوّه فشعر بتقزز واقشعرّ بدنه، وهو يحاول تفادي النظر إلى الرجل المسكين الذي أجهز على بقية مزاجه المتعكر في ذلك الصباح.

عندما انكبّ على عمله في الوزارة، ليدوّن في سجل المواليد إنتاج مدينته بأحيائها المختلفة من الأطفال خلال أسبوع منصرم، تزايد اكتئابه

وضيقه إذ بدا له حجم العمل المطلوب منه كبيراً إلى درجة لا تحتمل، وتحتاج موظفًا إضافيًا يشاركه فيه. لعن في سرّه دفتر المواليد، والمواليد، والناس التي لا تكف عن تفريخها، وهيئة تنظيم الأسرة لأنها لا تلعب دورًا فعالاً في تحديد النسل، وتكتفي بإرسال تحياتها للجمهور في إعلانات التلفزيون، ثم واصل عمله بضيق وتكاسل ولامبالاة شديدة.

في حوالي الساعة الثانية عشرة والربع، رنّ جرس الهاتف الموضوع على مكتب رئيس القسم، بينما كان عبد الحميد الساعي يقلّب له كوبًا من الشاي الكشري بملعقة قديمة صدئة. في هذه الأثناء كانت سيّدة عبد العال زميلة أسامة في القسم نفسه ترصّ قطع الخيار والطماطم فوق الجبن الرومي داخل رغيف الفينو استعدادًا لالتهام وجبتها اليومية المعتادة في الشغل، بينما الرئيس القائد يطلّ بنظراته على الجميع بترفّع من صورته المعلّقة على الحائط داخل إطار ذهبي كبير.

سعيد بدوي شاعر العاميّة، وماسك سجلّ الوفيات بالإدارة، يحلّ الكلمات المتقاطعة ويفكّر في اسم لحيوانٍ داجنٍ يتكون من أربعة حروف، ليتمكّن من الإجهاز على جميع الكلمات المتقاطعة بكل الصحف الحكومية وغير الحكومية الصادرة خلال ذلك النهار، ممارسًا بذلك أسلوبه المزمن في التعبير عن لامبالاته واستخفافه بالوزارة وطبيعة العمل والعاملين فيها.

حمل رئيس القسم سمّاعة الهاتف وردّ، دون أن يرمش له جفن، أو أن يكلّف نفسه رفع رأسه عن كتاب عذاب القبر ونعيمه الذي كان يقرأ فيه. وضع السماعة على المكتب ببرود ونادى :

– أسامة.

هبَّ أسامة من مكانه كالأرنب المذعور، فمن النادر أن يتلقّى مكالمات هاتفية أثناء عمله في الوزارة، وخلال الخطوتين اللتين خطفهما بسرعة ليكون حيث مكان الهاتف، تلاعبت به الظنون : هل أصيبت واحدة من البنتين بمكروه ؟ هل وقعت العمارة وانهدّت على حياة ومن فيها من السكان ؟! هل أصيب ابن عمه في حادث سيارة بالطريق ؟!

وضع السمّاعة على أذنه بيد متوترة ثم ردّ بعد قليل :

– يا خبر.. مستحيل.. مستحيل يا حياة !

أعاد السماعة إلى مكانها بتوتر، وبصعوبة حملته قدماه إلى مكتبه، لينكفئ برأسه على دفتر المواليد ويبكي بحرقة أذهلت سيّدة عبد العال فلخبطت نظام الخيار والطماطم على الجبن الرومي، تاركةً الرغيف على ورقة الجريدة التي كان ملفوفًا بها على المكتب، لتدُبَّ على صدرها وقد ظنّت أن واحدة من ابنتي أسامة توفاها الله. أما المتلذذ بعذاب القبر، ومتولي الكلمات المتقاطعة، وعبد الحميد الساعي فقد سارعوا بالالتفاف حول أسامة في دهشة عارمة محاولين استنطاقه بقولهم :

– لا إله إلا الله، حصل شيء لا سمح الله ؟! تكلم يا أسامة، انطق يا رجل ! ظل أسامة لفترة ينهنه ويغمغم بصعوبة :

– بيتي تخرب، بيتي تخرب يا عالم.

وعلى صوت ذلك الشعار الذي أطلقه، تجمع موظفو الأقسام المجاورة الأرشيف، الصادر والوارد، الميزانية، بعد أن جاءوا من غرفهم ليستطلعوا الحدث المثير. فجأة، كفّ أسامة عن البكاء، ورفع رأسه ثم أغلق سجلّ المواليد الذي شربت دموعه عليه، ووضعه في درج مكتبه ثم أغلقه

بالمفتاح. هبَّ واقفًا وهو يكفكف دموعه بمنديل ورقي ناوله إيّاه شاعر العامية وقال :

– شكرًا.. سعيكم مشكور يا جماعة.. بعد إذنكم.

ثم انطلق خارج المصلحة دون أن يحصل على إذن من رئيسه أو مديره.

لم يكن يرى أمامه إلا السواد، ولا يسمع غير رنين كلمات حياة في أذنيه وهي تقوله له : «الحقني يا أسامة، الأرانب ماتت، ماتت كلها.» وما حكته له بعد ذلك بسرعة لتخبره بشكل موجز كيف أن الأرانب قُتلَتْ في مذبحة وحشية قامت بها عِرْسَة سفّاحَة أثناء تواجدهم في عرس فتحية بنت الجيران، فقد تسللت العرسة عبر باب القفص، الذي نسيته مفتوحًا بعدما انتهت من إطعام الأرانب وقت صلاة العشاء، لتمتص في هدوء الليل دم أحد عشر أرنبًا بينما كان جميع من في البيت نائمين.

أما المواليد التي بلغ تعدادها خمسة عشر أرنبًا في القفص، فقد تكوّمت كُتَلٌ صغيرٍ من اللحم الأحمر الدامي، بعد أن واصلت الدراكولا نشاطها متسللةً من الرف السفلي إلى الرف العلوي. «كلّهم ماتوا»... هذا ما قالته حياة، «ماتوا يا أسامة، دخلت أحطّ لهم البرسيم عند الصبح، وجدتهم مرميين»... «الحقني يا أسامة».

لحق شاعر العاميّة بأسامة عند الدرجة الأخيرة من السلم، بصفته مبعوثًا من رئيس القسم الذي لم يقف تمامًا على حقيقة الأمر ليتحرّى ما جرى ويقف إلى جانب المصدوم في مصيبته، لكن أسامة رجاه أن يعود أدراجه ويتركه لحاله، بعد أن ابتدع كذبة صغيرة كمبرر لما جرى، إذ أعلن

للشاعر – الذي أعلن بدوره بعد ذلك لجميع المتسائلين في الوزارة – أنّ فاتن رسبت للمرة الثالثة في الكليّة بسبب الكيمياء الحيوية.

واسى الشاعر أسامة وتركه، وراح يفكر مندهشاً من سخافة أسامة وقلّة عقله «فلترسب البنت، فما معنى التعليم وما قيمته في بلد كهذه البلد ؟ وما قيمة الكيمياء الحيوية فيها أصلاً ؟! فالبنت سواء رسبت، أو نجحت بامتياز، فإنها لن تجد عملاً إلا عند محل كوافير أو كسكرتيرة أو كبائعة في محل، مثلها في ذلك مثل الآلاف من خريجي الجامعات، لن تفعل شيئاً بهذه الكيمياء ولا بغيرها، فالبلد لم تعد محتاجة إلى علم أو كيمياء. لماذا يتجاهل الناس هذه الحقيقة ويدفنون رؤوسهم في الرمال كما النعام ؟! ولماذا لا يتخذه أسامة آية وعبرة ؟! فهو متخرج من كلية الهندسة، وحاصل على دبلومة عليا في القوى الكهربائية، ومع ذلك يعمل في قسم الإحصاء مع أسامة، ولولا نفوذ زوج عمته في الوزارة وتوسطه بعد تخرجه لتعيينه فيها لكان الآن على قارعة الطريق يتسكّع أو يتسوّل ككثير من خريجي الجامعات في هذا الزمان».

سار أسامة كالمخمور يتخبط في الشارع، لا يعي من أمره شيئاً ولا يعرف إلى أين يتجه في هذه اللحظات السوداء، التي مرت عليه وكأنها دهر.

في البداية أخذته قدماه إلى طريقه المعتاد نحو محطّة الأتوبيس، وقف ينتظر قليلاً، بدت الدنيا في نظره أضيق من خرم إبرة، ومظلمة بلا أي معنى، بعد فترة وجد نفسه يترك المحطة، ويسير كالقطط الضالة في الشوارع.

كانت أحداث الأسبوع السابق تتلاحق في رأسه بسرعة مذهلة، ...

حياة باعت أساورها وأبدت حماسًا مفاجئًا لشراء الأرض والتوسع في مشروع الأرانب. ذات مساء فاجأته بأفكارها الجهنمية هي الأخرى، إذ صنعت قبّعات نسائية من فراء الأرانب قالت أنها ستلاقي إقبالاً منقطع النظير من المحجبات خلال فصل الشتاء القادم، لأنها أنيقة وتدفئ الرأس، وأرتـه أيضًا عـلب مناديل ورقـية مغطّاة بفـراء الأرانب صـنعتها بنفسها وزيّنتها بالترتر وخَرْج النجف بعد أن رشّتها بألوان رشّ متعددة لتضفي عليها بهجةً وأناقة، وأخبرته أنها قامت بجولة على أصحاب المحلات لبيعها وهي في انتظار طلبيّات منهم... رحلة البحث عن قطعة أرض بثمن يتلاءم والمبلغ الذي جمعه لم تنقطع، لكن دون جدوى، فالمبلغ المتحصل من بيع ذهب حياة، بالإضافة إلى مدخراتـه لا يكـفي... فاتن تعـلن احتجاجها لعـدم حصولها على فلوس الدرس الخصوصي وتهدد بترك الكلّية نهائيًا... حياة تكتشف بالصدفة خطابات غرامية تخفيها سامية وراء قفص الأرانب تعرف منها وجود علاقة بينها وبين رجل يكبرها بستة عشر عامًا، وأنها تنوي الزواج منه، رغم أنها مازالت في سنتها الأولى بالجامعة... ماسورة الصرف الصحي الرئيسية في العمارة تنفجر بسبب انتهاء عمرها الافتراضي – كما قال السبّاك – منذ عشرين سنة على الأقل، وصاحبة العمارة تطالب كل شقة بدفع مائتي جنيه لاتخاذ اللازم واستبدالها بماسورة جديدة، وإلا يبقى الوضع على ما هو عليه، وتخرّ الماسورة داخل الشقق، ومن لا يعجبه يضرب دماغه في الحيط.

ظل أسامة يهيم على وجهه، لا يعرف إلى أين يتجه، كان يدرك شيئًا واحدًا فقط هو أنه لا يرغب في العودة إلى البيت، ولا يريد الذهاب إلى

العمل، لا يريد أن يتعامل مع أي مخلوق، لا حياة ولا البنات، ولا عبد الحميد الساعي، ولا شاعر العامية ولا أي إنسان آخر يعرفه. هو يريد فقط أن يموت ويستريح من الدنيا وقرفها في التو واللحظة، فكّر أن يرمي نفسه تحت أتوبيس أو قطار، أن يذهب إلى شاطئ النيل ويقفز إلى الماء، أو أن يبتاع سمًّا للفئران من أقرب صيدلية تقابله ويتجرّعه بسرعة، لكن الشجاعة لم تواته لتنفيذ أيٍّ من هذه المشروعات العَدَمية، كما أن نفسه صعبت عليه جدًا فاكتفى بالبكاء المرّ أثناء سيره.

بعد انتهاء المكالمة التليفونية العاجلة مع أسامة، ظلت حياة تنتظره في البيت حتى الساعة الثالثة ظهرًا، وهو الموعد المحدد لدوران مفتاحه في قفل الباب، فلما لم يأت وهو الذي كانت تتوقع حضوره فور سماعه بكارثة الأرانب أخذ القلق يساورها، وعند وصول فاتن وسامية من الجامعة قبل المغرب، كانت الأفكار السوداء قد التهمت أعصابها وجعلتها نصف مجنونة، إذ كانت تفكر في احتمال أن تكون سيّارة قد صدمت زوجها، أو أن الأتوبيس الذي استقله غرق في النيل، أو ربما داس على سلك كهربائي مكشوف فصعقه كما حدث لبعض الناس، أو أنه مرّ بجوار منزل قديم آيل للسقوط فانهار فوق رأسه. مرت بخاطرها احتمالات شرٍّ عديدة قد تكون وراء غياب الرجل الذي يأتي في موعده دائمًا. اتصلت بابن عمه هاتفيًا ظنًّا منها أنه ربما يكون قد مرّ عليه في البيت، لكنها لم تجده، وبينما كان مؤذِّن المغرب في الجامع القريب ينادي حيّ على الفلاح بصوته الخشن الأجشّ، أعلنت حياة لبنتيها وهي تلطم خدّيها أن أباهما صار في عداد المفقودين.

تضاءلت مصيبة الأرانب في عين حياة، بالنظر إلى الطّامة الكبرى

التي تواجهها في هذه اللحظات، وبدت مشكلة علاقة سامية بالرجل الكبير ومشكلة ماسورة المياه من الصغائر بالنسبة لها. ارتدت فستان الطوارئ الكحلي على عجل، وهو الفستان الذي تحتفظ به خصيصاً ليلائم مناسبات العزاء في المآتم، وزيارات المرضى، والمباركة بالنجاح، وعمل الواجب مع الأقارب والأصحاب في الأفراح، ثم إنها اصطحبت البنتين في رحلة بحث عن الرجل المفقود.

توجهت حياة لأقسام البوليس، واستقبالات الطوارئ بالمستشفيات العامة، وسألت كل المعارف والأقارب، وحتى نهاية الليل لم تكن هناك نتيجة مجدية من البحث، الذي انضم إلى فريق القائمين به ابن عم أسامة بعد انتهاء عمله كموظف خزينة في أحد الملاهي الليلية.

أعلنت حياة أنها ستنتحر... ستموّت روحها... ستشعل النار في جسدها إذا لم يعد أسامة. تمنّت أن يعود إليها بأي شكل، وبأية حال، حتى لو عاد أعمى، أو مشلولاً، أو مجروحاً، أو مصاباً بعاهة لو كان قد تعرض لحادث ما، المهم أن يبقى على قيد الحياة.

مضى أسبوع كامل، وأسامة مختفٍ كأنه فصّ ملح وذاب. استدعى البوليس حياة والبنتين وزملاءه في وزارة الصحة لاستجوابهم، فمن المحتمل أن يكون سبب غيابه جنائياً، ولكن كل الأطراف المستجوبة أفادت أن أسامة كان شخصاً مهذباً مسالماً، في حَالِهِ دائماً، لم يناقش أو يجادل في أيّ أمرٍ من الأمور، وهو - وفقاً لأقوال مديره العام الأستاذ فهمي عبد العال - «مطيع جداً، وينفّذ ما يُطلب منه بهدوء» وبدون مشاكل، وكان آخر من يقف في طابور الجمعية التعاونية للعاملين في الوزارة ليصرف مستحقّاته من

السكر والزيت واللحم، ولم يكن يشاحن أو يصارع كما يفعل العديد من الموظفين الآخرين لكي يحصلوا على حصصهم من لوازم البيت قبل غيرهم».

أعلنت حياة حالة الحزن العام في البيت فامتنعت عن مشاهدة مسلسل السابعة والربع في التلفزيون، وهو المسلسل الذي تحرص على مشاهدته بانتظام ودأب مهما كانت الظروف، حتى في الوقت الذي كانت البنتان تذاكران فيه استعداداً لامتحانات آخر السنة الدراسية. كما أنها قننت طعامها، فلم تعد تفطر، بل صارت تكتفي بأكل لقمة صغيرة مع الشاي بعد الظهر بعد إلحاح من فاتن وسامية، أما الفاكهة فلم تُدخلها البيت منذ غاب أسامة، بالإضافة إلى أنها لم تلبِّ دعوة صاحبةٍ لها تسكن الشارع نفسه لحضور حفلة زار رغم ولعها الشديد بحفلات الزار وتمنيها أن تساعدها ظروفها المالية ذات يوم لتقيمها في البيت.

ذات صباح، وبعد مرور أسبوع كامل على غياب أسامة، كانت حياة تجلس على الأرض قبالة شيخ عجوز يفتح المندل، ويتمتم بتعويذات غير مفهومة بحثًا عن الرجل المفقود، ولتعيين موقعه في المدينة، وقد تحلّقت حولها فاتن وسامية وأم فتحيّة التي كانت قد جاءت بالعجوز باعتباره خبير مندل مختص كمساهمة منها في حلّ لغز الزوج الضائع منذ أسبوع. رن جرس الباب، قامت فاتن لترى من يكون الرنّان، وهي تنهر سامية، وتطالبها بالسكوت بعد أن ضاقت بتعليقاتها الساخرة المتهكمة على فاتح المندل، الذي أبدى استياءه أيضًا وأعلن عدم قدرته على التركيز، إذا ما استمرت البنت في تعليقاتها، وما أن تبادلت فاتحة الباب بضعة كلمات مع القادم ذي الجلباب الطويل والعِمّة حتى أطلقت صرخةً رهيبةً، سقطت على إثرها

مغشيًا عليها، بينما هبّت حياة وسامية والجارة وفاتح المندل إليها عند الباب. أصيب الرجل القادم بالارتباك بعد أن تجمع الجيران حوله أيضًا، إثر سماعهم صرخة فاتن، بدا فاتح المندل هو الوحيد المتماسك بين الجميع، فسارع بسؤال الرجل أبو عمّة عن هويته فأفاد :

– أنا تربي حوش رستم الليثي، وأظن أن بيت الأستاذ أسامة ابنه هنا.

فور سماعها كلماته، تركت حياة ابنتها الغائبة عن الوعي، والتي سارع الجميع لمساعدتها، فقرّبوا بَصَلَةً من أنفها، ورشوا على وجهها ماءً باردًا، ودلّكوا كفيها وجبهتها بكولونيا الليمون المتواضعة ماركة «الثلاث خمسات» التي كان أسامة يحتفظ بها لاستخدامها بعد حلاقة ذقنه عادةً. أمسكت حياة الرجل من كتفيه في محاولة منها لاستنطاقه بأسرع ما يمكن، فنطق أخيرًا وأعلن عثوره على أسامة في آخر الليلة الماضية بالصدفة وأثناء مروره بالترب، وأنه لم يتعرف عليه في البداية وظنه لصًا ينوي سرقة مقبرة أو لمّ عظام الميتين ليبيعها لطلبة الطب، خصوصًا أن شكله كان متسخًا وذقنه طويلة، والظلام يغطي الترب. لكنه بدأ يشك في الأمر عندما اكتشف أن الرجل يبكي ويجلس في حالة إعياءٍ تام، كما أنه لم يُبدِ أيّة مقاومة تُذكر عندما هجم عليه وأمسكه من الخلف لاويًا ذراعه كي لا يفر، ثم أضاف أنه سأله عدة مرات عمّن يكون، ولماذا هو في هذا المكان في هذه الحصة المتأخرة من الليل، فلمّا لم يردّ، ظنّ أنه شمّام من شمّامي بودرة المخدّرات، أو أحد زبائن أوكار حقن الماكسفورت وقد أخذ كمية كبيرة أفقدته الوعي. أخيرًا أنهى التربي تقريره للمتحلقين حوله قائلاً : «فلما شعرت أن الرجل

حالته خطيرة وربما يموت» – وهنا لطمت حياة ودبّت على صدرها – «قمت بالتفتيش في جيبه حتى وجدتُ بطاقته الشخصية فأخذتها وجريت لأبصّ فيها تحت عمود النور، فعرفت الاسم وتأكدت من الصورة، ثم أني ناديت على ابني، فحضر وحملناه إلى البيت، وهو موجود طرفنا، وبخير إن شاء الله، لكنه يهذي بكلام غير مفهوم ويقول إن أمه نادته فحضر إليها بسرعة، وطلب مني أن أدفنه معها، ثم إنه يبكي أحيانًا ويقول : نعم، حالاً.. حالاً أكون عندك يا ماما».

على ضوء هذه الأحداث المؤسفة، وفي الحال، تحرك وفد مكّون من حياة والبنتين، وأم فتحية وأبيها، بصحبة التربي لاسترجاع أسامة من مكمنه في القرافة، لكن سامية اضطرت للانسحاب بسبب فشلهم في العثور على سيارة أجرة تكفي لخمسة ركاب، رغم أن التربي يسّر الأمر عليهم وقرر ركوب الأتوبيس.

ظل أسامة بعد عودته إلى البيت، يحدّق بذهول في الباكيات النائحات أمامه، ويهذي بكلمات غير مفهومة، ويبكي رافضًا الطعام والشراب. بدا في عين حياة وكأنه ليس أسامة الذي عرفته وخبرته كما تعرف نفسها، فقد نقص وزنه كثيرًا، وبات وجهه صغيرًا ممصوصًا يشبه رغيفًا من أرغفة مخابز الحكومة الآلية، ورغم أنها كانت رافضة لفكرة عرضه على طبيب نفسيّ كما اقترح ابن عمه، خشية الفضيحة، وأن يقال عنه أنه فقد عقله وجُن، فيضيع مستقبل البنتين ولا تجدان من يقبل بالزواج منهما بعد ذلك، ورغم أنها كانت تشك في دوافع إلحاح ابن العم على ذلك إلا أنها أذعنت في النهاية، ووافقت على الفكرة، لأن حالة زوجها أخذت في التدهور أكثر فأكثر،

إذ بات يصرخ ويقول أن هناك مؤامرة كبرى ضده يقف وراءها مديره فهمي عبد العال الذي كان يراقبه ويتجسس عليه، وإلا لماذا طلب منه أرنبين، وكيف عرف بمشروع الأرانب أصلاً، واتّهم الأمم المتّحدة بأنها كانت تسعى لإفلاسه وجعله على الحديدة، وأنها كانت وراء برنامج التلفزيون الذي أدى في النهاية إلى بيع ذهب حياة، وقال أن فهمي عبد العال والأمم المتحدة تآمرا سويًا لإفشال مشروعه، وأن العرسة هي الأداة المنفّذة للمؤامرة، أما حياة وفاتن وسامية، فقد اتهمهن - خصوصًا الأخيرة منهن - بأنهن لا يعرفن قيمته، ولا يتصورن المستقبل الذي كان ينتظرهن والذي كان يرسمه لهن مع مشروع الأرانب.

وهكذا، جاء ابن العم بالطبيب النفسي الذي قام بتحويل أسامة فورًا إلى قسم الأمراض النفسية بمستشفى التأمين الصحي التابع للوزارة، وقد بات خبر ما جرى لأسامة معروفًا ومنتشرًا ومتداولاً في أوساط عديدة، رغم محاولات حياة المستميتة للتكتّم عليه حفاظًا على سمعة زوجها وبيتها، وحرصًا على ابنتيها الشابتين.

٣

ردود فعل محدودة النطاق حول ما جرى لأسامة من أحداث مؤسفة ووقوعه في المرض إيّاه.

□ خبر في صفحة الحوادث بجريدة حكومية محافظة عريقة :

«تم العثور على موظف حكومي في حالة إعياء وذهول بالغيْن، بمقابر الإمام الشافعي بعد تغيُّبه عن بيته لمدة أسبوع، وقد تبين أن الموظف يُدعى أسامة رستم الليثي (٤٥ سنة)، وهو يعاني من ضائقة مالية مزمنة، وأفادت زوجته أنه اختفى إثر إبلاغها له هاتفيًا في عمله بوزارة الصحة عن مصرع كل الأرانب التي كان يربيها في قفصٍ بمنزله، وقد انتهت التحريات إلى استبعاد الدافع الجنائي لتغيُّبه، وعلى ضوء ذلك قام السيد مأمور القسم بتسليمه إلى ذويه».

ملاحظة : مع الخبر صورة منشـورة للسـيد رئيـس القسـم بثيابه الرسمية، ومكتوب تحتها اسمه مسبوقًا برتبته الوظيفية.

ملاحظة أخرى : لم يحدث أن قام رئيس القسم بتسليم أسامة إلى ذويه، بل قام التربي بذلك، ثم أبلغت حياة القسـم بعثورها على زوجها المفقود.

☐ تعليـق بصـحيفة معـارضة معـترف بهـا مـن قبل الحكومة فقط:

«مـرة أخـرى تثبت أكذوبـة التمويل الخارجـي، وسياسـة الانفتـاح الاقتصادي، فقد أصيب المواطن أسامة رستم الليثي وهو من العاملين في وزارة الصحة بلوثة عقلية بعد فشله في الحصول على تمويل خارجي من الأمم المتحدة، وقد قالت زوجته السيدة حياة خليفة لمندوب جريـدتنا عـندما ذهب للقاء أسـرة المواطن في منزله أنها تنوي رفع قضية على رئيس اتحاد الإذاعة والتلفزيون مطالِبةً إيَّاه بالتعويض عن الأضرار التى لحقت بها وبزوجها بعد أن وعد التلفزيون من خلال ندوةٍ أذاعها بإمكانية تمويل مشروع الأرانب الذي كان زوجها قد أنشأه، وأنها باعت كل ما تملك لتصرف على هذا المشـروع الذي كانت أسـرتها تعـقد عليه آمالاً عريضة. وأضافت السيِّدة حياة، أن زوجها اعترف لها أثناء مرضه بأنه حاول كثيرًا، الاتصال باليونايتيد

نيشينز، لكنه فشل، وأخبرها أنه ذهب بنفسه أكثر من مرة إلى مقرّ الهيئة الدولية، بعد استماعه لندوة التلفزيون، وحاول مقابلة المسئولين وإطلاعهم على تفاصيل مشروعه ليحصل على التمويل لكنه كان دومًا يفشل في مقابلة أيٍّ من هؤلاء المسئولين، وأنه لم يقابل إلا عسكري الحراسة المصري، الذي طالبه وهو يشهر السونكي في وجهه بالابتعاد الفوري عن مقر الهيئة وإلا قُبض عليه للاشتباه فيه.

ونحن نسوق هذه الوقائع، لكل أولئك المتشدقين بجدوى التمويل الخارجي لاقتصادنا القومي، ونتساءل عن مدى جدّية المؤسسات الأجنبية في مساعدة هذا الاقتصاد على النهوض الحقيقي ومواجهة احتياجات البلاد ونستنكر أن تستمر عمليات التغرير والاستخفاف بكل البسطاء والشرفاء والمقهورين في هذا الوطن العظيم».

ملاحظة : مُرفَق بالموضوع صورةٌ لحياة وهي تتحدث لمندوب الجريدة الذي يبتسم ابتسامة عريضة، وقد كتب تحت الصورة : السيدة حياة زوجة المواطن أسامة الليثي وهي تتحدث إلى الأستاذ عمر عبد الرازق مندوب جريدتنا وتقول خدعونا وخدعوا زوجي الطيب، ثم بينط أكبر : تصوير نصر الطنطاوي.

☐ **الهيئة الدولية تلتزم الصمت :**

«رفض المتحدث الرسمي للأمم المتحدة التعليق على ما ورد في جريدة رسمية معارضة من اتهام بخصوص رفض الهيئة لتمويل مشروع صغير لأحد المواطنين بمدينة القاهرة، وقال المتحدث إن الهيئة لا تتوانى عن تقديم العون لبلدان العالم الثالث من خلال هيئاتها النوعية المتخصصة، كما أنها لا تقوم بتمويل الأفراد بأي حال من الأحوال».

☐ **استجواب في مجلس الشعب :**

«أعلن النائب الشعبي حسن عطية لأبناء دائرته الانتخابية عن اعتزامه تقديم استجواب برلماني في مجلس الشعب بخصوص ما جرى لابن الدائرة أسامة رستم الليثي، وقال النائب أيضاً أنه يزمع فتح ملف المساعدات الأجنبية بالكامل، خلال الدورة المقبلة للمجلس، حتى تتضح الرؤية أمام أبناء الدائرة وكل المواطنين، وقد أفاد النائب في النهاية، بأن مكتبه الاستشاري مفتوح لطالبي دراسات الجدوى الاقتصادية في كل مجالات قطاع الأعمال، كما أن المكتب يقوم حاليًا بإعداد كُتيِّبٍ إرشادي تفصيلي يتناول كل الهيئات الأجنبية التي يمكن أن تساهم في تمويل المشروعات المحلية بالريف والحضر».

☐ في التلفزيون : أذن من طين وأخرى من عجين :

«تابع التلفزيون من خلال برامجه الاقتصادية ما بدأه من حلقات تتناول تنمية المشروعات الصغيرة، وقد أعلنت مذيعة ربط الفقرات لأحبائها كل أفراد الأسرة – وهى تبتسم بدون سبب – أنهم سيسهرون *الليلة*، وفي ليالٍ أخرى مقبلة، مع نجوم الاقتصاد، ليردُّوا على كل ما يدور في الأذهان بخصوص تمويل المشروعات الصغيرة، التي باتت تشغل كل بيت، وكل مواطن طموح في بلدنا الآن».

☐ قضية أسامة والتطبيع :

في الجمعية الأهلية لرفض التطبيع مع العدو الصهيوني، فجّر الفنان التشكيلي، الصحفي، والقاصّ، الروائي، الشاعر، المترجم، الناقد، نبيه الشاطر مفاجأة في موضوع أسامة الليثي، إذ أعلن أن لديه وثيقة تثبت محاولة العدو الصهيوني إجراء اتصالات مع المواطن المذكور لإقناعه بقبول تمويل لمشروع الأرانب، وصرّح الشاطر أن كل ذلك يأتي في سياق محاولات العدو التي لا تنقطع، لاختراق المجتمع المصري بعد تنفيذ اتفاقية كامب ديفيد الشهيرة، وفرض التطبيع معه، وهو ما أثبتت الأيام فشله حتى الآن».

□ الجماعات تتحرك :

«قالت فاتن الابنة الكبرى لأسامة رستم الليثي، إن الجماعات الدينية اتصلت بأبيها مؤخراً، وعرضت عليه إدارة محل لبيع الفراخ والبط والأرانب يعود ريعه لصالحه، شريطة انضمامه لهذه الجماعات، لكن أباها رفض الفكرة تماماً».

(نقلاً عن باب بورصة الأسرار بمجلة أسبوعية شهيرة)

□ ندوة عشوائية في وزارة الصحة :

في الساعة الواحدة إلا ربعاً من يوم الثلاثاء التالي للعثور على أسامة، قام موظفو قسم الإحصاء في وزارة الصحة بعقد ندوة عشوائية لتضييع الوقت، وقتل الملل اليومي المعتاد، كان موضوعها : أسامة المسكين وما جرى له في ظرف يومين. تمت الندوة ككل ندوات الموظفين في وزارة الصحة والوزارات الحكومية الأخرى، بدون برمجة أو تخطيط، ووفقاً لمنهج «كلام يجيب كلاماً»، وقد افتتحتها زميلة أسامة في القسم، سيّدة عبد العال، بينما كانت ترتّب وضع الخيار والطماطم فوق الجبن الرومي برغيف الفينو تمهيداً لالتهامه كالعادة، فقالت : والنبي مرض الأستاذ أسامة قطع في الواحد جداً، ربنا يشفيه ويعين أهله ويلطف بعياله. ووفقاً لترتيب المشاركين في الكلام بالندوة، جاءت وجهات نظرهم كالآتي :

● عبد الحميد الساعي - وهو يُقلّب الشاي الكشري المخصوص لرئيس القسم - :

– والله الأستاذ أسامة إنسان أمير جداً، لكن عقله ولا مؤاخذة خفيف بعض الشيء، دائمًا كان يقول لي : «لما البيزنز يمشي معي، إن شاء الله، أعيِّنك عندي يا عبد الحميد، وأريَّحك جداً، وأبسطها معك في المرتب». وبصراحة أنا عمري ما شفته عمل بيزنز، لذلك كنت أسايره وأجاريه وأقول له ربنا يخليك لعيالك يا أستاذ أسامة... مسكين والله.

● رئيس القسم – وهو يطلب رقمًا بالهاتف دون أن يرفع بصره عن الأوراق التي أمامه – :

– مشكلة أسامة أنه من أصول كبيرة، وكل الناس أولاد الذوات حصل لهم خلل بعد تغيُّر الدنيا لمّا الزمن جار عليهم. أنا كنت ألاحظ أنه طالع فيها بعض الشيء، وعنده جنون عظمة وغير واقعي على الإطلاق، ولا يفهم الدنيا ماشية بأية طريقة.

● شاعر العامية – وهو يحل الكلمات المتقاطعة في ثالث جريدة خلال اليوم – :

– طبعًا لابد أن تحصل للرجل لوثة، وعقله يخفّ، لأنه إنسان مرهف، عاجز عن التكيُّف مع الناس، أي كائن عاقل لازم أن يجرى لمخّه شيء، بسبب عيشتنا الزفت. الرجل حاول في مشروع واثنين وثلاثة، عافَرَ مع الظروف، ثم فشل في النهاية، فلابد أن يصاب بصدمة، لأنه لا يقدر على السرقة واللصوصية ولا على الفهلوة والبلطجة ولعب الثلاث ورقات كما بعض الناس في أيامنا المنيلة إياها. الأسلاك ضربت والكمبيوتر في دماغه تعطل، شيء طبيعي جداً أنه انهار.

قال ذلك وهو يتطلع في وجه رئيس القسم الانتهازي، الذي يكرهه لأنه

يجيد التملق للمدير، وإلى عبد الحميد الساعي، الذي كان يفرض أتاوات على الجمهور لإنهاء مصالحه وكانت تتراوح بين الجنيه والخمسة جنيهات بعد أن يقول : «كل سنة وانت طيب يا أستاذ». وقد اشترك المدير العام في الندوة بالصدفة، إذ دخل على مرءوسيه أثناء الحوار ليبلغهم بالتعليمات الأمنية الجديدة التي تلقاها منذ فترة وجيزة، وتنص على ضرورة الخضوع لتفتيش الحقائب الشخصية في مكتب الأمن عند المجيء إلى العمل صباحاً، وعدم السماح للجمهور بترك أية متعلقات على المكاتب أثناء إنجاز مصالحه في الوزارة، فجاء رأيه كما يلي :

– أسامة طيّب ومسكين، وإن كان ينجز عمله في بطء، وواضح أن ظروفه العائلية صعبة وصحته على قدّه، أما موضوع الأرانب فأنا عرفته بالصدفة، ربنا ألهمني أن أسأل عبد الحميد لما شفته ومعه الكيس الكاكي، ولما كلمت أسامة، أنكر حكاية مشروع الأرانب، فجاريته ولم أحرجه وأقول له إني فاهم إن المشروع مشروعه، وقلت أشتري منه أرنبين وأنفّعه، ثم إن المرض النفسي مسألة من المحتمل أن تكون كامنة عند الإنسان من الطفولة وتظهر فجأة في الكبر. لكن بصراحة يا جماعة، أنا كنت ألاحظ أن إيمانه ضعيف، وعمره ما ركع في جامع المصلحة، ولا ترك الشغل من يده لما يسمع الله أكبر. الإيمان يا أولاد... الإيمان يعصم الإنسان من التعب والمرض لأن الإنسان لمّا يعرف ربّه يرتاح وروحه تطمئن.

عقّب الجميع بهمهمة وتمتمة، وهزّوا الرؤوس إيجابًا، ما عدا شاعر العامية الذي تنهّد وزفر دون أن يرفع رأسه عن الجريدة، وإن كان نحّاها بعد قليل، حتى لا يُتهم بعدم احترام المدير، ثم أنه انتهز لحظةً

خاطفة، وفي غفلة من الجميع المنشغلين بالمدير، رسم بشفتيه تعبيراً استنكارياً هازئاً (ضمّهما سوياً وحركهما بسرعة يميناً ويساراً عدة مرات). وكان الشاعر قد صرح أكثر من مرة لأسامة قبل مرضه أن المدير هو ثور الله في برسيمه، ويعيش بعقلية القرون الوسطى.

☐ ندوة الجيران في بيت أم فتحية :

وهي ندوة جرت بمحض الصدفة، وقت أن جاءت صاحبة العمارة إلى شقّة أم فتحيّة لتحصيل فلوس ماسورة المجاري، وطلبت من فتحيّة لَمّ الفلوس من بقية سكان الشقق لأن رجلها اليمين وارمة وعمّالة تنقح عليها بسبب أكلة الفسيخ التي التهمتها في الظهر، فلما ذهبت فتحيّة إلى الجيران، جاء بعضهم لمناقشة صاحبة العمارة وجهاً لوجه في قيمة المبلغ المطلوب للماسورة، في محاولة منهم لتخفيضه، لكن صاحبة العمارة واجهتهم بدورها، وأفحمتهم تماماً عندما أبرزت فاتورة ثمن الماسورة، ثم أعلنت أمام الجميع، تنازلها عن حصّة شقّة أسامة من الفلوس نظراً للظروف الأخيرة التي ألمّت بصاحب الشقة، وهنا افتتحت أم فتحية الندوة فقالت :

– والنبي صعبت عليّ حياة، المسكينة أصبحت تلقّ في الجلابية من قلّة الأكل، الدنيا غدرت بها، رغم أنها شقيانة وعمّالة تجتهد لأجل بيتها وعيالها. آخر مرة شفتها، عرضت عليّ طاقية من جلد الأرانب، واشتريتها من باب التنفيع.

● أما نظرية صاحبة العمارة فكانت :

– يظهر أن الرجل معمول له عمل. قبل شهرين كان قط أسود غطيس على دوّاسة باب شقّتهم، شفته فتعوذت بالله من الشيطان وناديته : بس بس بس بس. لأجل أن يفزّ ويقوم، لكن ابن الذينَ بصّ لي بلؤم وكوّر جسمه ولبد في مطرحه ولم يتحلحل من مكانه أبداً، فقلت لروحي : بخاطره اتركيه يا بنت على كيفه. وبعدها مشيت خطوتين في طرقة السلم، فشعرت بشيء غريب تحت رجلي، ميلت لأشوفه، فوجدته لَفّة صغيرة من جلد أرنب أسود في أبيض فتحتها بسرعة، فشفت ورقة مرسومة بالطلسمات والعكوسات، وبأشكال حيوانات غريبة وأرانب فرُحت طالعة شقتي بسرعة وحرقت العمل، وحملت كيس ملح رشيدي خشن، ونزلت أرشّ السلّم من أوّله إلى آخره، سلمة سلمة، ولما حضر الشيخ سعيد المقرئ ساعة العصر طلبت منه أن يقرأ سورة «قل أعوذ بربّ الفلق» وحكيت له الحكاية، فنصحني أن أطلق البخور كل جمعة في مدخل العمارة.

● تعقيب وإفتاء من فتحية :

– فعلاً يا طنط. أنا يومها كنت خارجة الصبح للكلية، وشعرت بقرش الملح تحت رجلي، وقلت يمكن إن الملح وقع على الأرض من واحد طالع على السلم وأخذته الناس في الرجلين، وهي طالعة ونازلة، لكن بصراحة عم أسامة معذور، وأعصابه لابد أن يجري لها منتهى التعب، لأن فاتن وسامية في غاية التكبُّر، خصوصاً سامية متطلباتها بلا حصر، ومناخيرها في السماء، وطموحها فوق مقدرة أهلها.

● أرملة البواب أم حسن في خطاب صغير مفتوح لجميع الحاضرين :

يعني كل الجراير تمت من تحت راس العِرسة، لو إن الأرانب ما كان

جرى لها ما جرى، ما وقع الأستاذ أسامة وقعة المرض الصعبة يا جماعة. وبصراحة الحكومة تاركة العِرَس تسرح في كل ناحية من البلد، ولا جنس مخلوق قادر ان يقول لها بس. طيِّب لو كانت الحكومة تلمّ العِرَس والكلاب السارحة في الشوارع والنازلة أذى في الناس، كانت الحكاية ما حصلت من الأصل. البلد فوضى، والكلاب عمّالة ترمح وتعضّ في الخلق. ابن عباس الساعاتي عضّه كلب من يومين قدّام دكانه واضطر ان يروح المستشفى ويحقنوه بحقن الكلب. والله الفوضى والعرس هي السبب في كل المتاعب.

□ ندوة أصحاب الشأن :

وهي الندوة التي تخللتها دموع وحسرات، وتنهدات وزفرات ومرارات وإحباطات وتشاؤم، ثم أمل ورجاء، وقد جرت قبل خروج أسامة من المستشفى بيوم واحد.

– والنبي يا ماما كفاية حزن. امسكي نفسك، كلنا يلزمنا التعاون والتماسك، والدموع لا يمكن أن تعود علينا بأية نتيجة. لكن بصراحة يا ماما، أنت يلزمك الحزم مع بابا، لازم تبطلي تسايريه وتوافقيه على الكلام الفارغ والمشروعات العبيطة إيّاها، وكل شيء وقع بكرة ينصلح إن شاء الله.

(سامية لأمها)

– كفاية فلسفة ونظريات ومواعظ يا سامية، ماما معذورة بلا شك وحالة بابا تصعب على الكافر، لأنه قبل كل شيء إنسان طيب وحسّاس، وحرام أن يجرى له ما جرى، وأنت مسئولة يا سامية عن مرضه بشكل من الأشكال، لأنك صاحبة مشاكل، وتعليقاتك نازلة طالعة على كل كبيرة

وصغيرة، وماسكة له هو وماما على الواحدة، لدرجة إنه شعر وكأنه في حالة حرب، والبيت كله خناقات عمّال على بطّال. أرجوكِ يا سامية لما يرجع بابا من المستشفى حاولي إن تكوني لطيفة وأن تتكلمي معه بهدوء وبدون انفعال وتوتر، وكفانا مجادلة في كل كبيرة وصغيرة.

(فاتن لأختها)

– مستعدة.. أبيع هدومي... إنشا الله يارب نقضيها بدُقّة أو عيش وملح، ويرجع أسامة لطبيعته... مستعدّة.. أفرش له رموشي ليمشي عليها، مستعدّة.. أعمل له خدّي كما المداس، وهو يعود لصحته وعقله ووعيه. يارب إنت عالم بحالي.

(حياة)

– أهمّ شيء يا جماعة هو تهيئة الجو المناسب له لأن العلاج بجلسات الكهرباء مُتعب جداً، ومن المحتمل أن ينسى بعض الأشياء. مسألة عادية تماماً. الجو الأسري السعيد أهم شيء بالنسبة لحالته، المرح والابتسام والبعد عن النكد والمشاكل مسألة شديدة الأهمية، خصوصاً منك يا سامية؛ وربنا الشافي.

(ابن عم أسامة – وهو يستعد للذهاب لأن الليل ليّل)

٤

بعد ستة شهور من عودة أسامة إلى البيت، بدأت الأمور تسير سيرها المعتاد، فقد استعاد توازنه النفسي شيئًا فشيئًا، بفضل الحقن المهدئة والمنومة والمؤثرة على التركيب الفسيولوجي لسوائل المخ. ثم إنه عاد يزاول عمله في دفتر المواليد بالوزارة، والجديد هنا أنه صار يواظب على صلاة الظهر مع مديره العام في الجامع العشوائي الذي يحتل وقت الصلاة مدخل الدور الأول في الوزارة، حيث تفرش الحصر على الأرض، ويتعطل المرور في هذه المنطقة من المبنى حوالي نصف ساعة يوميًا يقضيها الجمهور في حالة انتظار ريثما ينتهي الموظفون المؤمنون من أداء واجبهم الديني.

ومن التطورات الأخرى التي طرأت على أسامة، أنه كفّ عن الحلم بالأثداء الكبيرة عابرة الطريق، وصار يغضّ الطرف عنها مع سبق الإصرار كلما برز بعضها أمام نظره بالصدفة، أما على المستوى الشكلي فقد أطلق لحيته، وبالتالي باتت كولونيا الليمون «الثلاث خمسات» لا تستخدم إلا في الأغراض الطبية، وخصوصًا في تطهير موضع الحقنة الشهرية من جلد إليته، أمّا حياة فقد تحجّبت وصارت تغطي شعرها بمنديل كبير، يسقط على

كتفيها وصدرها ليقارب ركبتيها، على عكس فاتن التي جاء حجابها بسيطًا يتلخص في منديل متوسط من الشيفون الملوّن الزاهي، تعقده خلف رقبتها بعد لفّه عليها من الأمام، ليبرز الشيء الوحيد الملفت فيها وهو شعرها الكستنائي الغزير.

ولا حاجة بنا في هذا المقام أن نؤكد رفض سامية للحجاب وهو الرفض الذي يعتبر طبيعيًا بالنسبة لشخصيتها رغم إلحاح أمها وفاتن عليها، لتغطي شعرها بأي شكل من الأشكال، حتى ولو كان طاقية كيروشيه بسيطة تصل حتى الأذنين فقط.

خلال هذه الفترة، جرت بعض الأحداث المهمة للأسرة، فقد رسبت فاتن للمرة الثالثة في الكيمياء الحيوية، فقررت ترك الجامعة نهائيًا والاشتغال كمدرّسة حضانة في مدرسة لغات قريبة من البيت، بمرتب متواضع جدًا، لم يعوّضه إلا الهدايا شبه الإجبارية التي يقدمها الأطفال للمدرّسات في الأعياد المختلفة بدءًا من عيد الأم، وحتى عيد القمح الذي جرى اختراعه أخيرًا. وقد أصبحت حياة في ورطة حقيقية، إذ عرضت عليها صاحبة قديمة لها، تدير محلاً للتجميل وتصفيف الشعر، أن ترافقها لتعمل معها في بلد نفطي، لقاء أجرٍ مُغرٍ للغاية وبشروط إقامة ميسّرة على أن يكون ذلك في محل تجميل متخصص على مستوى عال، وأن تكون مهمتها على وجه التحديد هي انتزاع الشعر من أجساد زبونات المحل، وعمل تدليك لهن بعد ذلك بالزيوت الطيّارة والعطور والدهون. وقد أبلغت الكوافيرة حياة أنها ستقدمها لصاحبة العمل الخليجية كخبيرة في هذا المجال بالطرق البلدية المعروفة. بدا الراتب المعروض على حياة جذابًا جدًا ويستحق التفكير

في الأمر لكنها كانت تخشى أن تترك سامية وأسامة في مصر. تخاف أن تنتكس حالة أسامة عندما يفتقدها، وأن يأكلها القلق على ابنتها المتهوِّرة الهوجاء. صحيح أن سامية أنهت علاقتها بالرجل المتزوج، لكنها لن تعدم بديلاً له خلال فترة زمنية وجيزة بعد ذلك.

ومن الأحداث السارة التي جرت للأسرة خلال تلك الأيام، أن حياة جاءت بمبيّض فدهن حيطان الشقة بالطلاء الزيتي، لون سن الفيل، وقد بدا هذا القرار في عينيّ سامية ثوريًا جدًا، لأن الشقة لم تلامس جدرانها فرشاة طلاء طيلة خمسة عشر عامًا مضت.

كما قامت حياة بخطوة مباركة أخرى، إذ طلبت من المنجِّد أن يشد كراسي طقم الصالون، بعد أن اشترت لها خصيصًا كسوةً جديدة من الساتان المنقوش، بدلاً من القديمة التي تهرأت، وقد اضطرت حياة لهذه التجديدات بعدما اكتشفت أن علاج أسامة التهم الشطر الأعظم من متحصل بيع الأساور الذهبية، ورفعت شعار ضرورة ستر البيت، وجعل مظهره لائقًا، فمن المحتمل أن يرد إليه بعض الخُطّاب لطلب الزواج من فاتن، وهو ما لم يحدث ولن يحدث إلا بعد ست سنوات تالية لزمن رفع الشعار، وربما بسبب نحول فاتن الشديد وتضخم أنفها بالإضافة إلى صدرها الممسوح الشبيه بصدر والدتها.

ذات مساء سعيد، وبعدما وزعت حياة قطع البسبوسة على أسرتها الصغيرة بينما كان الجميع يتابعون مسلسل السابعة والربع في التلفزيون، قال لها أسامة وهو يزدرد ما نابه بتلذذ :

– عندي فكرة ظريفة نُزيد بها دخلنا، نعمل حلويات ونوزعها على

البيوت، ونجعل أسعارها أرخص من أسعار الحلويات في المحلات بالسوق.

توقفت حياة قليلاً عن تناول ما بيدها، نظرت إليه بشفقة، وكادت أن تقول له كفانا مشروعات وأفكار فاشلة يا زوجي العزيز، لكنها تذكرت مرضه النفسي ونصائح الطبيب لها : «لا تناقشيه، لا تجادليه، تعاملي معه بحزم» فنظرت إليه بحنان وردّت :

– والله فكرة يا أسامة.

استطرد قائلاً بحماس :

– نطلب نشر إعلان صغير في إعلانات جريدة الأهرام المبوّبة، سطر واحد مكتوب فيه «جميع أصناف الحلويات من البيت للبيت بأسعار مغرية»، مع رقم التليفون.

رنّ الهاتف، رفع أسامة السماعة، فجاءه من الطرف الآخر صوت يقول :

– مساء الخير يا أستاذ أسامة، أعرّفك بنفسي، أنا صاحب مشروع لعمل المخلّلات في البيت، أخذت رقم تليفونك من الدليل العام وأنا مستعد لتوصيل أي طلبات من المخللات إلى حضرتك في البيت، علمًا بأن عندنا أصناف ممتازة من مخللات الزيتون والليمون والخيار والجزر والبصل واللفت وحتى الفاصوليا، ممكن إن النوع الأخير جديد بالنسبة لك، لأنه غير معروف في مصر، لكن حاول أن تجرّبه مرة ومستحيل إنك تنساه بعدها، وحسب الطلب، نعمل لك الخزين السنوي، لكن باتفاق سابق طبعًا. أسعار ممتازة، والتخليل يتم بأساليب علمية لأني مهندس زراعي ورقم تليفوني هو..

بدت الفكرة رائعة في نظر أسامة، ليس فكرة المظلات، ولكن فكرة استخدام الهاتف كوسيلة للإعلان عن مشروع الحلويات المقبل، وهكذا ظل أسامة طوال ستة شهور، بعد الشهور الستة التي أعقبت خروجه من المستشفى، يكرّس وقته المسائي اعتبارًا من الساعة السادسة حتى الساعة العاشرة ليلاً للاتصال بعملائه المتوقّعين مُعلنًا عن مشروع الحلويات وقد أسفرت اتصالاته خلال تلك الأشهر عما يلي :

● تعرض لشتائم عديدة متنوعة لم تخل من بذاءات ووقاحات، فلقد ظن البعض أنه رجل تافه يرغب في تضييع الوقت والتسلي بمضايقة الناس وإزعاجهم عمّالاً على بطال.

● تعرّف على ناس كثيرين يعملون في مهن مختلفة، بعضها ذات مستوى رفيع، أبدى بعضهم استعدادهم لتشغيله في وظائف عندهم.

● بعد مكالمة قصيرة مع صاحب رقم عشوائي أبدى الرجل رغبته في مقابلته شخصيًا في صباح اليوم التالي بكازينو النهر، على أن يرتدي قميصًا سماويًا وربطة عنق سوداء، ثم إنه تعرّف منه على أوصافه، وعندما ذهب أسامة، إلى الموعد المحدد، قابله ذلك الشخص بترحاب شديد، ودعاه لشرب البيرة، وفوجئ به يستجوبه على نحو دقيق بخصوص تاريخه الشخصي وحياته الأسرية، وعلاقاته الاجتماعية، ثم سأله عن جيرانه وابنتيه، وصديقاتهما في البيت والجامعة، وعندما بدأ يشعر بقلق أسامة، وتوتره، أعلن له بصراحة عن الهدف من المقابلة، فقال له أنه سيعيّنه كمحاسب في واحد من سلسلة محلاته الشهيرة بالمدينة، مقابل راتب معقول، لكن عمله الحقيقي والذي سيقوم به فعلاً هو استلام حقيبة كل أسبوع من

مكان محدّد وتسليمها في مكان آخر بهدوء ودون أن يلحظه أحد، شريطة ألا يسأل أبدًا عن محتواها أولاً، وألا يخبر أي كائن كان عمّا يقوم به ثانيًا، وأما ثالثًا، فعليه اعتبار عمله هذا التزامًا أبديًا، لا يحله منه إلا الموت.

كان الرجل يتحدث بصوت أجشّ واثق، ولهجة تهديدية لم تخلُ من جبروت وعنف، مما جعل أسامة يرتعب، ويصبّ لنفسه دون أن يشعر كأسًا من البيرة (كان قد رفض شرب البيرة فى بداية اللقاء نظرًا لمواقفه الأخيرة). في النهاية أبلغه الرجل دون أن ينتظر منه ردًّا أو استفسارًا وهو يقوم فجأة استعدادًا للذهاب، أنه في حالة الموافقة على العمل المقترح والذي سينال منه خمسة آلاف جنيه نظير كل نقلة للحقيبة بالإضافة إلى المرتب، فإن عليه الاتصال برقم هاتف خاص غير مدّون فى الدليل العام للهواتف أعطاه إيّاه. أما في حالة رفضه فما عليه إلا أن يمزق الرقم وأن ينسى الموضوع نهائيًا، بل وأن ينسى أنه قابله أصلاً، وإلا فإنه سيندم ندمًا لن يفيده بعد ذلك، ثم إن الرجل دفع حساب البيرة ومضى دون أن يُكلّف نفسه مدّ يده الضخمة ومصافحة أسامة. ظل أسامة بعد ذلك متسمّرًا في مكانه، يشعر وكأنه يحلم، كان قد أصابته درجة من السُكْر الخفيف بعد أن عبّ عبّاتٍ سريعة من كأسه لكنها لم تمنع استيعابه لكل كلمة قالها الرجل ووعيه لما قاله فطلب من النادل أن يأتيه بفنجان من القهوة المُرّة الثقيلة حتى يتنبّه تمامًا، وعندما عاد النادل كانت الهواجس والظنون والوساوس قد التهمه تمامًا، فالمسألة واضحة كعين الشمس ؛ الرجل يتاجر في المخدرات عيني عينك، رغم ثرائه الفاحش وامتلاكه لسلسلة من المحلات لم يبح لأسامة باسمها. فكّر : لماذا اختارك أنت بالذات يا أسامة ؟! ترى أي نوع من المخدّرات، الهيروين، أم

الأفيون أم الحشيش ؟ ! ثم فكّر في المبلغ الساحر الذي عرضه عليه الرجل نظير النقل، شيء لا يُصدّق يمكن أن يُحدث في حياته نقلةً انقلابية خطيرة لا يمكن أن تحلم بها سامية أو فاتن أو حياة، لكن الرعب تملّكه في النهاية من الانغراس في عمل – مصيبة من هذا النوع، وفكر في الخروج فوراً من الكازينو وإبلاغ البوليس، لكنه اكتشف أنه يخاف البوليس أيضًا، ويخاف الاقتراب من مبانيـه، مثلما يخاف الرجل الأنيـق جداً ذي المظهر الراقـي الوقور، الذي كان يجلس قبالته منذ قليل. وفي الطريق إلى البيت، وهو يسير مجرجراً رجليه بعد أن سابت مفاصله، مزّق رقم التليفون السرّي وطوّحه في الهواء، وشعر بحسرة وإحباط يحطمان روحه ويهدّان كيانه.

● أصبح يحفظ عن ظهر قلب جميع الأرقام الأولى لهواتف مناطق القاهرة الكبرى كلها.

● تعرّض لمدّة شهرين متواصلين، لمراقبة تليفونية من مباحث الآداب، التي ظنت أن إعلانه عن البسبوسة، وأم علي ولقمة القاضي، والشكلمة، ما هو إلا شِفرة خاصة لتوريد نساء الرذيلة.

● أصيب بضعف في السمع بأذنه اليمنى، لاستعماله الهاتف لفترات طويلة.

● زادت مشاجراته مع حياة التي فقدت أعصابها ولم تعد تحتمل قضاءه للأمسيات في استخدام الهاتف، خصوصاً وقت عرض مسلسل السابعة والربع في التلفزيون.

● تعرّض لتوتر عصبي على فترات متقطّعة بسبب جدل بعض من تكلم معهم فمنهم من قال ان الأسعار التي يطرحها مرتفعة، أو أنهم لا يضمنون

نظافته وسلامة الخامات التي يستخدمها، ويفضلون الشراء من محلات الحلويات المعروفة التي تخضع لإشراف وزارة الصحة.

● عند اتصاله بأحد الأرقام أخبره المتحدث على الطرف الآخر من الخط، أنه قام بالمشروع ذاته، لكنه فشل فشلاً ذريعًا.

● مرة، اتصل أسامة برقم من الدليل وكان لسيدة أعلنت بصوت ناعم رقيق تحمسها الشديد للمشروع، وطلبت منه صينية بسبوسة بالقشدة، أوصلها أسامة لها في مساء اليوم التالي، لكن الطلبات المتكررة للمرأة، والتي لم تنقطع أسبوعًا واحدًا أصابت حياة بالقلق، وجعلتها تشعر أن هناك أمرًا ما وراء البسبوسة فوضعت الحالة تحت المراقبة، لتكتشف ذات مساء، وأثناء تصنّتها على محادثة هاتفية بين العميلة وزوجها، أن العلاقة بينهما آخر حلاوة، فبدأت تفسر أسباب هجر أسامة لها في الفراش، وعدم تعليقه على منديل الشيفون الأحمر الجديد الذي اشترته مؤخرًا، وتوقفه عن مناداتها بياروحي، كما كان يحدث بين وقت وآخر، خصوصًا عند طلبه لشيء منها. وبمواجهته، اعترف أسامة وأقرّ بأن المرأة أرملة ولا تعول، لأنها عاقر، وأنه أمضى معها بعضًا من الوقت أكثر من مرة في شقتها بشبرا، عندما كان يأخذ لها الحلويات، ثم فجّر أسامة قنبلة التحقيق الذي تمّ ليلاً في حجرة النوم، بعد نوم البنتين، إذ أقسم لحياة أنه لم يلمس من المرأة أكثر من كفّها عندما كان يصافحها، لكنه تعشّى عندها أكثر من مرة، ورفض العشاء آخر ليلة ذهب إليها فيها، لأنه كان ملوخيّة بالأرانب، كما أقر لحياة بأن المرأة كاشفته برغبتها في الزواج منه، وهي ميسورة، وشقتها واسعة، ولديها أرض تزرعها بالبرسيم، ثم أنهى كلامه وهو يمرر كفّه على فخذ

زوجته العاري في حنان ويسألها :

– ما رأيك يا حياتي ؟ الوليّة وحيدة وميسورة ومحتاجة الستر، وانت عارفة إني في عمري ما فكرت بأية مخلوقة إلا أنت، فكري في مصلحة البنتين، ومصلحتنا، الأرض ممتازة ومن المحتمل أن نقوم بمشروع عليها فيما بعد. واعتبري المسألة كلها مسألة مصلحة ومنفعة متبادلة مع الولية. كبّري عقلك يا حياة.

لأول مرة وطوال فترة زيجتها الممتدة، أعلنت حياة رفضها القاطع والنهائي لمشروع زوجها الجديد، لم تكن بحاجة لمعارضة سامية، كما أن توسلات زوجها ومحاولاته لإقناعها لم تفلح هذه المرة وقد ختمت الموضوع بتهديد أسامة بالطلاق دون رجعة، بل وبأنه لن يعرف لها سكّة بالفعل إذا ما حاول التفكير بهذه المرأة، وأعلنت إنهاء مشروع الحلويات جلاب المصائب الذي لم يَنُبْها منه كما قالت غير توسيخ المواعين، ولمّ النمل البلدي الصغير، والفارسي الكبير، والصراصير الرفيعة والصراصير أم شوارب طويلة في دواليب المطبخ، مما اضطرّها لدبّ مشوار إلى قريب لها في وزارة الزراعة ليعطيها بعضًا من مبيد التوكسافين الفعّال المستخدم في القضاء على دودة القطن لترش المطبخ كله حتى تتمكن من قطع دابر كل أنوا ع هذه الحشرات منه. ثم إنها أنهت تهديداتها لرجلها قائلة : «قَسَمًا عَظَمًا، لأكون تاركة لك البيت والعيال والدنيا والدين حتى آخر يوم من عمري يا أسامة إذا ما بطّلت حكاية الحلويات وقرفها».

ظلت حياة لفترة أخرى تعيش حالة من القلق وعدم الاطمئنان، رغم ارعواء أسامة، وامتثاله لتهديداتها، وكفّه عن مكالمة وليّة شبرا، وإجهازها

على مشروع الحلويات سييء السمعة تماماً، حتى كان اليوم الذي جلب فيه ساعي البريد خطاب هيئة المواصلات السلكية واللاسلكية المحتوي على فاتورة التليفون الباهظة، التي دفعت بحياة وأسامة إلى اتجاه مغاير تماماً.

فأسامة لم يتمكن من سداد الفاتورة عن فترة مكالماته الحلوانية بعد أن فاقت كل تصور محتمل بالنسبة له ولإمكانياته وجعلته يضيف اسم هيئة المواصلات السلكية واللاسلكية إلى القائمة السوداء المتضمنة لأسماء أعدائه جميعاً، ابتداء من الأمم المتحدة وشركائها في التلفزيون، وانتهاءً بمديره العام في وزارة الصحة (لم يجرؤ أسامة على إضافة اسم أمه صراحةً إلى هذه القائمة لاعتبارات دينية أوّلية توصى بحب الأم وطاعتها)، واعتبر أسامة أن هذه الهيئة هي واحدة من الأطراف الفعّالة في المؤامرة الكبرى التي مازالت تحاك حوله منذ فشل مشروع الأرانب، والتي تستهدف أمنه وسلامته وآماله العريضة في النمو والنهوض.

مُرتّب فاتن المحدود لم يسهم في نقلة حياتية ذات قيمة بالنسبة للأسرة إذ كان يُنفق في الأغلب على ملابسها ومصاريفها الشخصية بما في ذلك مصاريف مناديل رأسها الملونة التي تعددت لتناسب ألوان ملابسها، وكذلك مصاريف مساحيق الوجه التي باتت تضعها على نحو مهرجاني في محاولات مستميتة فاشلة لجذب الخُطّاب، وكتعويض عن أجمل ما تمتلك وقد ضاع منها تحت الحجاب.

صاحبة محل الكوافير، طالبت حياة بقرارٍ سريعٍ قاطع فيما يتعلّق بسفرها والاشتغال معها في الخليج، حتى تدبّر الأمر في حالة عدم سفرها وتتعاقد مع واحدة أخرى، وقد أمهلتها بداية الشهر التالي للشهر الذي

أبلغتها فيه بالقرار.

ذات صباح وقبل نهاية الشهر بأيام، كانت حياة تعدّ الشاي لأسامة قبل خروجه إلى العمل، تأملت موقد الغاز ذا الشعلتين، والثلاجة القديمة التي بدأ يأكلها الصدأ، ودواليب المطبخ المتهالكة، ثم دارت بعينيها على ملاعق الطبخ الكبيرة المعلّقة وأوعية الألمونيوم المهبّبة القعور، شعرت وكأنها جميعًا تخرج ألسنتها لها وتغيظها عن عمد، فقالت لزوجها وهي تصب الشاي وقد طافت بخيالها صور إعلانات التلفزيون عن المطابخ الجميلة الحديثة الجذابة.

– إسمع يا أسامة، بصراحة الحياة صارت صعبة، والعمر سارح ونفسي أن نطلع للدنيا كما الناس بحق وحقيق. بصراحة أنا فكرت، وقلّبتها من هنا مرة، ومن هناك مرة، ودورتها على كل ناحية، فوجدت أن الحل المناسب هو السفر مع سعاد الكوافيرة، حتى تتيسر أمورنا ونشم أنفاسنا بعض الشيء. كلها سنة وارجع إن شاء الله، ويا عالم، ربما يكون سفري فاتحة خير لنا جميعًا وبداية الفرج للعيال.

شعر أسامة أن قلبه يكاد يقع منه، فهو رغم كل شيء، لا يتصور البيت لحظة واحدة بدون حياة، فهي عماده الأساسي، شمعة الحياة فيه، السعادة المحسوسة غير المنظورة بالطبع. رشف رشفةً من كوب الشاي، فشعر بمرارة طعمه؛ طلب من حياة أن تضيف إليه مزيدًا من السكر، وهو يحاول ضبط مشاعره، لئلا يبدو منفعلاً أمامها. كان يدرك تمامًا أن قرارها هذا ما هو إلا تحصيل حاصل لما هم فيه، وأنه لم يعد لهذه الأسرة من بديل، غير ذلك الاقتراح الذي اقترحته حياة لتوّها، هكذا كان يفكر منذ فترة،

ومازال يفكر في ذلك، رغم توقعه للمعاناة، ومشاعر الفقد، والوحشة، التي سوف يسقط فريسةً لها عندما تغيب عن البيت، لكنه لم يجرؤ على مفاتحتها في الأمر أبدًا فقد كان متحرِّجًا من مصارحته لها برغبته في أن تسافر، بعد كل المتاعب التي سببها لها، وبعد مشروعاته الفاشلة، ومرضه المزعج بكل ما فيه من ملابسات، كما أنه لم يتقبل نفسيًا أن تكون حياة، وهي امرأة أولاً وأخيرًا، مصدرًا لحياة الأسرة، ثم إنه كان يخشى أن تظن به الظنون لو صارحها برغبته في سفرها، بسبب حكاية غرامه الأخيرة، أو أن تعتقد أنه يرغب في إبعادها والتخلص منها حتى يخلو إليه الجو فيبيض ويصفر كما يشاء.

آثر أن يكون لطيفًا، لبقًا، مجاملاً لها فقال :

– مستحيل يا حياة أن تفكرى في مسألة السفر، البيت بدونك يختل وأحوالنا تتلخبط. يا خبر يا حياة ! فكري في فاتن وسامية، كلنا في أشد الاحتياج لك، ومستحيل أن تسافري وتتركينا أصبري يا حياة الله يخلّيك.

كانت حياة تدرك من نبرات صوته، وهي التي عرفته وعركته لسنوات طوال، أنه يكذب ويجاملها، فعاودت طلبها منه ليوافق على سفرها، مشتركةً بذلك في المسرحية التي بدأها لتوِّه، والتي تعرف أنها ستنتهي النهاية السعيدة المنشودة فقالت :

– والنبي حاول التفكير بجد في الموضوع يا أسامة، وحكِّم عقلك. يعني هل أسافر وأشتغل وأجيب الفلوس، أم أحط يدي على خدي، ونقول للناس هاتوا ؟ يعني هل أنت مستريح بعد قطع الحرارة عن التليفون ؟ وهل أنت مبسوط من أحوالنا، وبلاط البيت القديم المتكسر، عمال يطقطق كل ما

مشت فوقه رجل ؟ والله أنا لو سافرت، فالسفر على فص عيني، لكن العمل عمل ربنا، وعصفور في اليد يا سيدي، خير من ألف على الشجرة، ثم إنها ألقت إليه بالخبر القنبلة فقالت :

– ثم هل تعرف أن العمارة صدر لها قرار إزالة من المحافظة، وصاحبتها ناوية تطلب من أصحاب الشقق التوقيع على القرار حتى تكون خالية المسئولية لو إن العمارة وقعت لا سمح الله، يعني المسألة أصبحت جد في جد، والتفكير في موضوع النقل من العمارة لأي مكان أصبح ضرورياً لأن المسألة واردة في أي لحظة.

عاود أسامة رشف الشاي دون أن يرفع نظره عن الكوب، ثم انتظر قليلاً قبل أن يسألها :

– وهل شاورت سامية وفاتن في مسألة السفر ؟

ردت حياة بسرعة وحماس :

– سامية موافقة ومتحمسة جداً، لكن فاتن سحّت دموعها، وحطّت من كل عين الشيء الفلاني قبل ما أكمل كلامي عن الموضوع إلى الآخِر معها. يا حبيبتي.. دموعها قريبة جداً، أصلها عاطفية وحنونة. لكني أظن إن علينا التفكير بجد لأن الوليّة سعاد، في انتظار رد مني قبل آخر الشهر.

بعد أيام قليلة من ذلك الصباح، تصورت حياة صوراً فورية ملونة واستخرجت جواز سفر دون أيّة إجراءات بيروقراطية سخيفة مما أثار دهشتها وهي المعتادة كمواطنة على الروتين المعقّد طوال حياتها عند التعامل مع أجهزة الحكومة، وقد علقت على ذلك لأسامة بقولها :

«كما لو كانوا متمنين ومشتهين إن الناس كلها تسافر وتغور، ولا

ترجع البلد أبداً».

حان وقت الرحيل بعد ذلك بأسابيع ثلاثة، وفي الوقت المحدد، فتحت حياة الباب، وأسامة خلفها يحمل حقيبتها، بينما راحت فاتن تتأملها بعيون محمرّة كعيون الارانب بعد أن بكت كثيراً ولم تخل، أما سامية، فكانت تحثّهم على عدم التلكؤ، وسرعة الحركة، حتى لا تفوت أمها الطائرة، ثم إن حياة خاطبت فاتن قائلة :

– والنبي يا فاتن، ومن نبّى النبي، لأكون مجهزة لك العريس معي عند رجوعي البلد بمشيئة واحد أحد، ونظرت إلى سامية نظرة ذات معنى، فهمت منها الأخيرة أن أمها تعاود التشديد على وصيتها لها، والتي تتلخص في مراقبة أبيها جيداً، ومنعه من الاتصال بأي شكل من الأشكال بوليّة شبرا، ووأد أية مشروعات جديدة قد تبرز في رأسه قبل ميلادها، ثم مواساة فاتن المسكينة لأنها لن تكف عن البكاء.

نظرت إليهم وتنهدت بحرقة، ثم إنهم ذهبوا معها جميعاً إلى المطار.


الجمل

الجمل

تحـولت إشـارة المـرور إلـى الأحمـر فتوقفت السيـارات الكبيرة والصغيرة، وانتظر الناس، بينما دبّ الطفل بقدميه وصاح وهو يشاهد جملاً يعبر الطريق :

– ماما .. الجمل.

ردت دون أن تحيد ببصرها عن إعلان لقرية سياحية جديدة، شغل حائط بناية ضخمة على ناصية الشارع :

– طيّب.

تابع بعينيه الكائن الضخم المهيب، برقبته الممتدة، وسنامه العالي، وهو يخطو بخطوت وئيدة؛ زفر برضا ثم أعلن :

– ماما .. عاوز الجمل.

– يا سلام ؟ ! .

قالتها وعيناها على بيضاء الإعلان، ذات الشعر الأصفر، المستلقية على الرمال في لباس بحر من قطعتين.

ثلّث مطلبه، وساق عليها النبي :

- والنبي يا حبيبتي عاوز الجمل.

كانت تمسكه بيد، وتحمل بيدها الأخرى حقيبته المدرسية وكيس خضار، أما حقيبتها فقد علقتها على كتفها.

أعلنت مستنكرةً بعد أن ملّت انتظار نور العبور الأخضر :

- جمل.. معقول ؟!

لم تغب عيناه عن الجمل حتى غاب، فشرع في البكاء مؤكداً جديّة مطلبه وإصراره عليه.

- وماله الجمل ؟! هاتي الجمل وخلاص.

اكتشفت جديّة الموضوع، فابتسمت، وشرحت :

- الجمل كبير ياحبيبي. مستحيل نحطّه في بيتنا. شقتنا صغيرة، والجمل يحتاج لمكان واسع.

دحض منطقها بسرعة :

- خلاص.. نروح ونقعد في بيت كبير ونشتري الجمل.

- ها ها ها... بيت كبير لأجل الجمل ؟! البيت الكبير تلزمه فلوس كثيرة، أنا فلوسي قليلة.

- طيّب خلّي فلوسك كثيرة.

- مستحيل ياحبيبي، لأن مرتّبي صغير، على قدّ الأكل والشرب.

عاود الدبيب على الأرض بقدميه وصرخ :

- لكن أنا عاوز الجمل، هاتي لي الجمل وخلاص.

الشمس قوية فوق رأسها، والرطوبة خانقة، أما البيت فما زال الطريق إليه ممتداً، وصبرها فاض فصرخت هي الأخرى :

– انت أهبل ؟! .. حمار ؟! قال عاوز الجمل قال !!.. إخرس خالص ومدّ، خلينا نروح البيت وأشوف الطبيخ قبل رجوع أختك من مدرستها.

انفتحت حنفية الدموع عن آخرها، ودعّمتها صرخاته، وهو لا يتوقف عن ترديد مطلبه – الذي رآه عادلاً وبسيطًا – في إصرار :

– عاوز الجمل ياستي، يعني ماله الجمل. نفسي تسمعي كلامي مرة وتجيبي لي طلبي... هئ.. هئ.. هئ.

أبرزت الجانب المظلم من الأمومة، وشمّرت عن أظافر وأنياب، وزعقت فيه :

– طيب أسكت ساكت، واقطع الخَنْس بسرعة، وإلا ضربتك لحد ما أعدمك العافية، ياحمار، ياغجري.. والله لو سمعت حسك لأضربك هنا في الشارع وقدام الناس كلها.

بدأ يرعوي تحت وطأة التهديد، فقد كان مُدركًا تمامًا إمكانية تَحوّله إلى تطبيق عملي، فخفض من حدة بكائه، لكنه لم ينهه بالكامل؛ عندئذ رقّت الأم قليلاً، وقررت اتباع الشق الثاني من سياسة المعزّ :

– اسكت يابني – الله يرضى عنك – لأني مصدّعة وجسمي يوجعني كله، يظهر أني داخلة على دور أنفلونزا، اسمع، تعال أجيب لك حاجة حلوة، عاوز بنبوني والا شيكولاته ؟

كاد أن ينفلق غيظًا. إنها تستخف به. توقف عن المسير وصرخ بغضب :

– قلت لك : جمل، جمل، لا بنبوني ولا نيلة.

أوشكت أن تنفجر هي الأخرى، هل تتوقف وتضربه، أم تبتلع غيظها

وتسكت ؟ فضلت الحل الأخير، لكنه لم يكفّ عن البكاء والمطالبة فوقع الانفجار :

– إخرس، بلا كلام فارغ، إنت عبيط والا صغير ؟! عندك ستّ سنين وتقول عاوز الجمل ؟ ! انسخطت، والا انسخطت ؟ ! سخطة لما تسخطك، هو الجمل لعبة والا حاجة بسيطة ؟! شيء يغيظ ويفلق والله.. يعني ناوي تلعب بجمل ؟!.. هه ؟!

فاجأته بسؤالها، فهو لم يكن لديه تصور محدد لما سيفعله بالجمل حتى هذه اللحظة، لكنه مازال يملك شعورًا قويًا جارفًا تجاه هذا الكائن العظيم الفريد، الذي توقفت له إشارات المرور والعربات وجميع الناس حتى عَبرَ الطريق.

تذكّر السنام والرقبة والعين الجاحظة فتنهّد في مرارة، وتأكّد من أحقّية مطلبه، فشتمها في سره.

وجدته صامتًا يفكر، فاستأنفت هجومها المقنع.

– ثم إن الجمل سعره غال ياحبيبي، لازم تخلي عندك ذوق وتعقل وتسمع كلام ماما، حرام تتعب قلبي وتطلّع روحي وهي طالعة خلقة من الحر.. الله يهديك، إمش.

حاول هو استخدام أسلوبها، فقال بهدوء :

– طيب يا ماما، لكن الجمل حاجة بسيطة خالص.

أجابته بسرعة مستجيبة لحوار العقل :

– طيب.. إنت عمرك شفت أي إنسان عنده جمل. أولاد عمك مثلاً. هل عندهم جمل ؟.. الجيران، أي واحد منهم عنده في بيته جمل ؟ اعقل

ياحبيبي الله يهديك.

دحض منطقها بسرعة :

– الجيران عندهم كلب، وأولاد عمي عندهم عجلة و..

لم تعد تحتمل النقاش فزعقت مغتاظة، حتى أن صوتها جذب انتباه عجوز كان يعبر بجانبها فنظر إليها مليًّا وهي تقول لابنها :

– إخرس. خلاص.. يلعن أبو شكلك وغلاستك.

وأكد لنفسه أن أمهات هذا الزمن مسكينات وعصبيات وروحهن في مناخرهن بسبب الحياة الصعبة، وقلة الغذاء، وأكل الفراخ البيضاء. واللحم المجمّد معدوم الخير، ثم إنه تصعّب ونظر للولد في شفقة وسار.

الولد لم ينتبه للتعاطف الخارجي الذي كان يسير إلى جانبه، إذ كان يسير محدِّقًا بالأرض، شاعراً بظلم فادح، من هذه المرأة المفترية، رغم عدالة قضيته من جميع النواحي، مطلبه بسيط إنساني جداً : جمل، لا أكثر ولا أقل. هي تتحدث عن الناس. الناس ليس عندهم جمال، لكن عندهم أشياء أخرى كثيرة ليست عنده في البيت، فلماذا تقول الناس، وتقول أولاد عمه ؟ !

قررت أن تشرب حاجة صاقعة تطفئ غيظها وشعورها بالحرارة، لذلك فإنها بمجرد أن وقع نظرها على زجاجات الصاقع وقد تناثرت فوقها قطع الثلج في صندوق بأحد المحلات توقفت وسألت ابنها :

– تشرب حاجة صاقعة ؟

لم يرد، واستكمل البكاء والزّن وهو ينظر إليها في حقد، فقالت له :

– انفلق. إنشا الله ما شربت.

جاء البائع مبتسمًا ليفتح لها زجاجة ليمون، فلما وجد الولد يبكي

أخذ يلاطفه ويخيّره بين أنواع الحلويات التي لديه، والولد لا يستجيب، فقالت الأم بعد أن سحبت من الزجاجة سحبة طويلة بشفتيها :

– قطيعة، قطعت خلِفة الصبيان، خلّى روحي في مناخيري، ونازل يقوّق لأنه شاف الجمل في السكة، وعاوز أجيبه له !؟ شيء يفلق.

ابتسم البائع مرة أخرى، وأخذ يربّت على الولد، ووجه له الكلام :

– جمل ؟ معك حق والله، طيب أنا أجيب لك الجمل يا عم، ولا يكون عندك أي فكر.

دخل الرجل الدكان، وعاد بعد قليل وفي يده جمل صغير، جمل من البلاستيك الأحمر الخفيف وضعه بين يدي الولد الصغير.

قلّب الطفل الشيء البلاستيكي بيديه، تأمله، كان على هيئة جمل فعلاً قارنه بذلك العظيم، المهيب، الذي عبر أمام ناظريه الطريق، بدا حائرًا مترددًا دهشًا من غباء الرجل، كيف يسمى ذلك الشيء الذي بين يديه جملاً !؟ لكنه تردد مرة أخرى، إذ كان بين يديه شيء على أية حال، فسكت ولم يقل شيئًا.

كانت الأم قد انتهت من زجاجة الليمون، فلما وجدته هادئًا ساكتًا قالت :

– الله.. والله جميل جداً.. وأحمر وحلو.

رمقها الطفل بما يشبه الرّيبة والاحتقار، وواصل صمته.

– تعرف.. تقدر تحطُّه فوق التلفزيون، أو تخلّيه ينام جنبك على السرير في الليل.

قالت ذلك فتصاعد شعوره بالمرارة والخديعة وخيبة الأمل في هذه الكاذبة التي أمامه، لكن بما أن هذا الشيء البلاستيكي الأحمر كان في يديه

فعلاً فقد واصل سكوته بينما نطق البائع بزهو المنتصر :

– العيال أقل شيء يرضيهم بسرعة، وأفضل طريقة معهم المحايلة.

أكدت الأم وهي تخرج الفلوس من كيسها :

– طلّع روحي طول السكة.. عاوز الجمل.. عاوز الجمل، كنت ناوية أرنّه علقة، والله في الشارع من عزم غيظي، ومنعت نفسي بالعافية.

نظر البائع إلى الولد في رضا وحاول مناقشته :

– حصل خير، لكن يا أخي اطلب عجلة، طيارة، إنما جمل، ذوقك غريب جداً، الجمل كان أيام زمان، بكرة ينقرض ويختفي خالص.

ابتسمت الأم بسعادة مَن خرج من ورطة، وسحبت الولد مغادرةً المحل، لكن ما إن ابتعدت قليلاً حتى أعلن لها بصوت هادئ واثق :

– ماما.. عاوز الجمل والنبي.


حیوانات



امتلأ الجو برائحة دخان الشواء الشهية، فامتلأ صدر الشوّاء اعتزازاً، وزاد من حركة المروحة المصنوعة من ريش الإوز، المصبوغة بألوان زاهية، والتي كانت بيمناه بينما امتدت أصابع يسراه لتلتقط قطعة من السفود وتدفع بها إلى فمه.

كانت الرائحة فاضحة، قوية، مغرية بما يكفي لأن تغامر القطتان فتقتربا كثيراً من موضع الشوّاء حتى صارتا على بعد أشبار قليلة من أصابع قدميه المدمْلَكَة الطّالّة من نعله المفتوح. ألقت القطتان نظرات سريعة مستريبة على حركة الأصابع المتململة لكثرة الوقوف، ولما اطمأنتا إلى أنه لا شيء يستحق القلق والخوف منها استرخى جسداهما، بينما راحت أبواق آذانهم الصغيرة تستجيب متحركة في اتجاه صوت بوق سيارة مسرعة في الطريق مرة، ولصراخ طفل مرة أخرى، ثم لنداء صاحب الشواء على العابرين ثالثة.

استقرت البيضاء المرقّطة بالأصفر على قوائمها الأربع في وضع الانتظار، أما الرمادية المقلّمة بالرصاصي الداكن، ذات الفم الوردي المكتنز،

فقد اتخذت وضع التطلُّع وقد اشرأبّت بعنقها الرفيع، وبدأت الاثنتان في إرسال تنويعات على لحن واحد : مياو.. مياو..

كانت البيضاء ذات صوت ناعم حاد، قادر على بثٍّ مؤثر رقيق من خلال مياو، التي كانت تخفت وتعلو دون تجاوز المسافة بين الاستجداء والاسترحام، أما الرمادية فبدا مواؤها واثقًا، لا يخلو من اعتداد بالنفس، وإصرار، كمن يطالب بحقوق مشروعة واجبة التنفيذ، ربما كان ذلك بسبب صوتها الأجشّ بعض الشيء، أو بسبب هيأتها الشبيهة بهيأة النمور إلى حد كبير. الحقيقة أن مياو الصادرة عنها، بمختلف تلاوينها الصوتية العالية والمنخفضة، القصيرة والطويلة، كانت تقترب من الوقاحة.

مضى وقت، واقترب المساء، وإذ لا جديد، شعر الجميع بالملل، فزاد الشوّاء من حركة تبديل قدميه، وخفّف من حركة يديه. أما ذاتا الأربع، فقد قررت البيضاء منهما افتراش الأرض الترابية بجسدها، وراحت تلعقه لعقات سريعة متوترة، واصلت بعدها المواء، بينما اكتفت الرمادية بابتلاع ريقها في عصبية عدة مرات، ثم فتحت فمها واسعًا للتثاؤب حتى بانت لهاتها، وبعد ذلك علّت من وتيرة مياو المطلبية.

عندئذ، قرر صاحب الشواء حسم تردّده، إذ كان قد فكر كثيرًا قبل ذلك في نهرهما وزجرهما قائلاً : بس، إمش؛ وها هو يعلن تنازله ورضوخه لمطلبهما، ربما بسبب ضيقه بكثرة المواء، وربما لأنه لم يجد شيئًا يفعله في تلك اللحظة، أو لأنه يحب القطط ويعطف عليها، ومن المحتمل كذلك أن يكون وراء ذلك التنازل إيمانه العميق بضرورة الإحسان إلى الحيوان الأعجم الذي تحتسب الحسنة إليه بأكثر من عشرة أمثالها، لأنها حسنة مخفيّة لا يجازي

عليها إلا ربٌّ العالمين.

ألقى الرجل إليهما بقطعتين من زوائد اللحم تحوّل المواء على إثرهما إلى : بخ، فخ، فو، أف... ثم طارت القطتان بغنيمتهما الثمينة مبتعدتين عن مكان الشوّاء، الذي تنهد بارتياح، وراح يغني بمرح : يا ليل، يا عين.

كان الدخان قد انتشر، ووصل إلى نهاية الشارع، حيث جلس كلب على الناصية يتشمم الهواء، باحثًا عن مصدر الرائحة اللذيذة، وسرعان ما حمل نفسه ومشى ليستقر واقفًا على بعد خطوات قليلة أمام محل الشوّاء.

ثبّت الكلب جسده في وضع الصبر والانتظار، ونظراته على عيني الشوّاء، الذي صار مشغولاً بزبائنه، وبتحضير الأرغفة المحشوّة باللحم وشرائح البصل والطماطم لهم، غير أن ذلك لم يحُل بينه وبين التطلع والنظر بين الحين والحين إلى الطريق.

في كل مرة، كانت عيناه تصطدمان بالعينين العسليتين الناظرتين بودٌ وطيبة إلى عينيه، ومهما مرّ الوقت، ومهما عاود الرجل النظر، كان يجد النظرة ذاتها، والبثّ الودود نفسه، المعبّر عن امتنان ووفاء مسبق منقطع النظير؛ ضَعُفَ الشوّاء أخيرًا بينما كان يتلقى ثمن أرغفته من زبون، فمدّ يده البضّة السمينة، ذات الأصابع المكتنزة إلى قطعة مصارين صغيرة، وألقى بها إلى الحيوان الواقف أمامه ينتظر حبلاً للوداد.

هوّ.. واحدة، كانت كل التعبير عن الرضا والامتنان والشكر العميق من الكلب الذي حمل قطعة المصارين بفمه وانسحب بهدوء. كحّ الشوّاء وبلّ ريقه بشربة ماء، ثم تجشأ في راحة.

تـوارت الشـمس تمامًا، وهَـلّ المسـاء بنسمات طرية رطبة، وزبائن

لا بأس بهم، تمنّى الشواء الانتهاء من بيع ما تبقى لديه من لحم بسرعة لينهي عمله، ويذهب إلى خمارة الليل السهران، ليشرب «خمسينة براندي»، يئوب بعدها إلى بيته ليقضي بقية ليله مع امرأته في الفراش.

فجأة برز أمامه ولد وبنت صغيران بعيون متطلعة، وملابس رثّة، وشعر خشن منكوش، أخذا يلعبان ويضحكان حينًا، ويتضاربان حينًا آخر، لكن أعينهما كانت دائمًا عليه، على شوائه تحديدًا، وعلى الزبائن الواقفين بالقرب منه يلتهمون اللحم في نهم وتلذُّذ.

أحسّ الشواء بضيق، وقال لروحه : ليِّلَ الليل، والناس رامية عيالها في الشوارع، عالّم وسخ والله.

لم يكفّ الطفلان عن الضحك واللعب والتضارب، بينما لم تكفّ عيونهما عن النظر إلى الشوّاء، وبطناهما عن طلب اللحم اللذيذ المتقلب في أسياخه الحديدية على حبات الفحم أمامهما، فراحا يدفعان بعضهما بعضًا في محاولة مكشوفة للفت انتباه صاحب الشواء.

استشاط الشوّاء غيظًا، وأكد لنفسه فكرته السابقة عن أطفال الشوارع وأهلهم، وقال لروحه وهو يضغط على أضراسه بِغلّ : أولاد الحرام ؟ ! ولما لاحظ اقترابهما منه أكثر صرخ بعنف قائلاً وقد ضاق بهما ولم يعد قادرًا على الاحتمال :

– إمشِ يا ولد، رُح لبعيد أنت وهي، بلا خوتة، وكفاية قلة أدب.

تسمّر الصغيران في مكانهما برهة، وهما ينظران إليه في يأس، ثم سرعان ما أخرجا له لسانيهما الرفيعين، وجريا بعيدًا وهما يبتسمان في حزن ومرارة .

درب اللبانة



درب التبّانة

بدا المكان مرتفعًا جدًا عندما نظرت من الشباك، إذ كان حائش النخيل المواجه لا يظهر منه إلا سعفه الأخضر الداكن المتراص. تزايد الرعب بداخلي، فرحت أعيد البحث عن منفذ للخروج، بعد أن قطعت الأمل في إمكانية القفز خارجًا عبر واحدة من تلك النوافذ والطاقات والكُوّات الكثيرة في هذا البيت الكئيب، الذي لا أعرف كيف ومتى دخلته، ولِمَ أنا فيه. كان الظلام قد بدأ يحل وأصوات مبهمة متناثرة لأناس كثيرين تخترق أذنيّ. قررت الصراخ طالبةً النجدة، لكني أفقت من نومي مذعورة على الزعيق المعهود لجاري وهو يسب ويشتم. فتحت عيني في الظلام، بينما صدى الأصوات ما يزال يتردد بداخلي. تأففت ومددت يدي متحسسةً المكان بحثًا عن زرِّ المصباح، فلما سمعت «تيك»، ورأيت انبلاج النور في الغرفة، نظرت من مطرحي إلى ساعة الحائط المثبّتة في الممر قرب الباب وهتفت لنفسي حانقة:

– اهمدوا يا عالم. ربنا يهدكم ونرتاح من قرفكم. خناقات على آخر الليل، إزعاج مستمر. لا ترعوا حرمة جار، ولا تحسبوا حساب ناس عندها

أشغال في الصبح. حَوَش. هَمَج. برابرة.

تثاءبتُ بضيق، وكنت أعرف استحالة معاودة النوم، بعد ذلك الزعيق، والكابوس المفزع فقمتُ، دخلتُ المطبخ وفتحت الثلاجة متطلعةً إلى ما بداخلها علّني أعثر على شيء حلو آكله لأفشّ غيظي فيه. فلما لم أجد غير الفول والزيتون وبقايا متبقية من جبن العشاء، مددت يدي إلى زجاجة ماء، وبينما كنت أصب كأساً لأشربه. اقتحمت أذنيّ أصوات : تراخ.. بو.. فو.. أف.. تفو. ثم الصوت المتحشرج المعهود لجاري : «والله لأكون قاتلك ولا يطلع عليكِ نهار يا بعيدة، وديني، وما أعبد، لأسيّح دمك وأستريح منك». وقفت متسمِّرةً مندهشة في مكاني أستمع لأصوات صحون تتكسر، وأثاث يُقلب. ما هذا ؟ ساءلت نفسي، ثم أجبتها : الرجل جنّ جنونه فعلاً، وربما يتهوّر ويقتلها. أغلقت باب الثلاجة وأنفاسي تتلاحق من فرط الإثارة وتابعت هواجسي : مصيبة سوداء لو قتلها لن أبقى في هذه الشقة ليلة أخرى بعد ذلك، أنا خوّافة جداً، في عمري كله ما شفت أي عفريت، لكن حكايات العفاريت التي سمعتها منذ صغري مازالت محفوظة في أرشيف ذاكرتي. سبحان من خلاني أعيش وحدي في شقة. بدأ شريط صور حكايات العفاريت يعبر خيالي على خلفيّة من ألحان الرعب التي بدأت تنبثق في داخلي. ثلاثية عفاريت جدتي أم أمي وهي : العفريت أبو رجل مسلوخة. العفريت أبو ثلاث عيون مشقوقة بالطول. العفريت أبو جلد معزى سوداء، ثم حكايات عفاريت جارتنا نينة حفيظة، وهي العفاريت الجهنمية القادرة على شقّ الحيط في عز النهار والخروج لتأديب العيال الذين لا يسمعون الكلام. ثم حكاية عفريت بنت السلطان برقوق التي كان يحكيها لي عم إبراهيم

العبد، خولي غيط عنب داير الناحية.

تعوذت من الشيطان الرجيم، إذ كان الخوف قد سلسلني تماماً، وأوقع قلبي، خصوصاً بعد همود الأصوات، وانتهاء الزعيق. سرت على أطراف أصابعي متوجهةً إلى نافذة المطبخ المطلّة على المنور الفاصل بين شقتي وشقة الجيران وأنا أرتعد، ورحت أصيخ السمع، وأتطلع إلى نافذتهم المقابلة لنافذتي، الصمت صميم يسمح بسماع صوت مشي النملة. ياربي.. هل قتلها فعلاً ؟ هل صفت كل الخناقات والمشاحنات التي طالما استمعت إليها بقتلها ؟ رحت أتذكر آخر خناقة دارت في الشقة المقابلة لشقتي، والتي كنت مستمعة عيان لها ساعة نشري الغسيل يوم عطلتي وقت الغروب، وبعد أن فردت قميص نومي الأخضر الفستقي على الحبل، جاءني صوته الخشن وهو يأمرها :

– فزّي. غوري من خلقتي بسرعة لأني عاوز أنام.

مثلما يحدث عادةً في كل مرة تنفذ فيها أصوات المشاجرة إلى أذني، لم أسمع منها رداً، سمعت فقط – وكما يحدث في بعض الأحيان – صوت قطتهما وهي تموء بدلال، وهذه القطة هي الشيء الوحيد الذى تسنّى لي رؤيته في شقة هؤلاء الجيران حتى الآن، إذ لاحظتها بضعة مرات ممددة على إفريز نافذة مطبخهم، سمينة، مشمشية اللون من النوع الرومي، وكانت تبدو لامبالية عادةً، حين أداعبها وأناديها : بس.. بس.. بس.. بس، إذ كانت تكتفي. بإغماض عينيها نصف إغماضة ثم تموء بصوت خفيض لا أسمعه من مكاني، لكني أرى حركته على فمها.

تُرى، أي طراز من النساء امرأته تلك، حاولتُ تصوُّر شكلها، تخيلتها

امرأة من الطراز التقليدي، سمينة بيضاء، من النوع المنزلي الأليف. أنا سمينة أيضاً، لكني لست من النوع المنزلي الأليف، طلقني زوجي بعد مرور شهور قليلة على زواجنا، رمى اليمين الشهير ذات يوم رفضت فيه إعداد كوب من الشاي له، فاتهمني بقلة الذوق والتربية، وفجر مخزون غضبه في مونولوج طويل من السباب، بلغ ذروته عندما أعلن صراحة أنه يكرهني، وأني عِرّة النساء ولا أساوي شيئاً في سوق الحريم، فلا مال لي، ولا جمال ولا حسب ولا نسب، وأنه كان أعمى عندما تزوجني، ثم لعن أولاد الحرام الذين أشاروا عليه بالزواج مني، والمقصود بذلك ابن خالته وزوجته زميلتي في المدرسة. وبمجرد أن انتهى من ذلك الموشح أسدل الستار على الفصل الأخير لزواجي بذلك الرجل، مدرّس التربية المسرحية، ثم خرجت من البيت بعد أن ألقى يمين الطلاق في وجهي، فقررت بدوري – وفي ساعتها – تطليق كل الرجال ومازال القرار مستمراً. لكن الواضح أن زوجة جاري لا تعمل إلا بالبيت، ربما لهذا السبب، وبسبب خروجي المبكر إلى عملي، لم تتح لي الفرصة لرؤيتها أبداً. لكني رأيت الرجل مرة أو مرتين على الأكثر منذ بداية سكني في العمارة، بعد انتقال عملي إلى هذه المدينة. لقد بدا لي رجلاً مهذباً خجولاً، لم يتطلع إلى وجهي قط وأنا أبادله تحية الصباح على بسطة السلم. حتى صوته في عز الشجار، رغم ارتفاعه، كانت تسري فيه رنة حزينة، يبدو الرجل معها، وكأنه يتوسل، لا يسبّ ولا يشتم. رجل طيّب على ما يبدو، أظن أن المرأة زوجته طيّبة كذلك، لأن صوتها لا يُسمع أبداً، وحتى بكاءها لم أسمعه قط، ربما هي من النوع الكتوم الذي لا يرغب التجريس ويخشى الفضائح، لكن الغريب هو أمر الجيران الذين لا يحاولون التدخل

وإصلاح الأمر بينهما، رغم كل ذلك الشجار والصوت العالي الواصل لكل العمارة. غريب والله أمر الناس في هذه المدينة الكبيرة، كأنهم حيوانات تعيش داخل أقفاص إسمنتية ضخمة، كلٌّ بقفصه منفرد يتجاهل وجود الآخرين ويتصرف وكأن لا أحد في هذه المدينة سواه. تنهدتُ بأسى. بينما رحت أشخص ببصرى خارجًا في الظلام، تجاه نافذة مطبخ جيراني المقابلة، صائخةً السمع، محاولةً اكتشاف جديدٍ جدَّ عندهم.

لكني لم أرَ شيئًا عبر زجاج النافذة المغبَّش، اللهم إلا ضوءًا يسيرًا. لا حركة. لا نأمة. لا حسّ. لا خبر. ربما تصالحا. ربما اعتذر لها وقبّل يديها ثم أخذها في أحضانه ليسحبها إلى الفراش حيث يقضيان الآن وقتًا حميمًا مسالمًا. لكن ما هذا. ياربي ! إنه يبكي. الرجل يبكي. صوت بكائه مسموع بوضوح الآن، هو يبكي بحُرقة وينهنه كالعيال، عويله يائس مهزوم. إذن لقد قتلها، أجزم أنه لابد وأن يكون قد فعلها. لا إله إلا الله، الرجل عملها، وهو منهار انهيار سد مأرب، يا للمسكينة، لم أسمعها ترد عليه بربع كلمة في أية مرة من المرات، لم يُسمع لها صوت أبدًا، لا حول ولا قوة إلا بالله. لكن كان عليها أن تستغيث أو تصرخ، أو تجْأر مستنجدةً، أو تزعق قائلةً : حرام عليك.. حرام عليك يا... اكتشفتُ خلال ذلك، أنني لا أعرف للرجل اسمًا. اعترتني وحشة من اصطدم بالغموض وسرعان ما تذكرت الكابوس الذي داهمني منذ قليل، لما كنت نائمة. لبرهة بدت المسألة لي وكأنها استمرار لذلك الحلم المفزع، حاولت التيقن. رفعت راحتي وتحسست ساعدي، فاستشعرت ملمس جلدي المزغب اللزج في هذه الليلة الصيفية الحارة.

رحت أمعن في حياة جيراني وتساءلت : لماذا يتشاجران على هذا

النحو دائمًا، خناقاتهما مسائية وليلية على الأغلب، هل الرجل من النوع السهّير السكّير ؟ هل يتعاطى المخدرات ؟! لكن مظهره عادي تمامًا ولا يبدو عليه ذلك. لا زَوَغان في نظراته، لا انتفاخ أو احمرار في عينيه، تعبير وجهه هادئ وطبيعي. رحت أشحذ ذاكرتي لاستحضار ملامح ذلك الوجه. أظنه نحيل بأنف طويل بعض الشيء وعينين داكنتين على الأغلب. لم أتصور أن المشاكل مع امرأته وصلت إلى هذا الحد: حد العنف والقتل. فكرت في المرأة بدورها، ربما كانت من ذلك النوع المستفز الغيّاظ اللامبالي من النساء، لكن حتى لو كانت كذلك، فلينفصل عنها ويتركها بالمعروف، ليبحث عن بديلة لها تلائمه، أما القتل فشيء لا يمكن فهمه، وحتى الضرب مسألة لا يمكن استيعابها أبدًا، لعل الرجل من النوع العصبي المتهور، لا يستطيع التحكم في نفسه وقصر الشر، لكن زوجته مغفّلة أيضًا، لأنها لا تسايسه. لا تفهم أن الحياة مع رجل أفضل من الوحدة. فلتسألني أنا.

إن الحياة مع أي إنسان أفضل من الوحدة. بل حتى الحياة مع أتفه حيوان أفضل من الوحدة. أن يعيش الإنسان وحيدًا معناه أنه اختار سجنه الانفرادي بنفسه. فمثلاً لو كان معي أي مخلوق الآن كنت سأكلمه وأناقشه فيما يحدث الآن.. لكن....

اشرأبيت بعنقي قليلاً، علّني أرى شيئًا، لكن لا شيء يُرى سوى النافذة المقابلة المغلقة. الرجل في شقته يبكي بمرارة. أشعر بدموعه ساخنة على خده تحرق قلبي، تتجمع دموع أحرّ منها في عينيّ، يتناهى صوته إليّ مرتفعًا، ممرورًا للغاية : «أنا مجرم، وحش. عقلي راح وضعت ياناس ! يارب خلصني من الدنيا .. أهئ.. أهئ.. أهئ..» مسكين الرجل، جن فعلاً، قلبي

يتقطع بسببه. يجب أن أتماسك وأفعل شيئًا. سأكلّم البوليس، فمن المحتمل أن يفكر الرجل في قتل نفسه، سأتصل بالبوليس ليأتى فوراً. «لكن هل أنت واثقة يا بنت من قتله لها، افرضي أنه لم يجهز عليها، هل تتحملين مسئولية البلاغ الكاذب وإزعاج السلطات ؟ ألا تعرفين أن السلطات منزعجة فعلاً، ومتلمظة على أي مخلوق يحاول إزعاجها ؟».

وقعت في حيص بيص، وقلت لروحي : لكن رغم ذلك لابد من عمل شيء، مستحيل السكوت. كانت مشاعر متناقضة تتملكني تتراوح بين الفضول والشفقة والرغبة في لعب دورٍ ما بخصوص ما يحدث في شقة الجيران، وهكذا وجدتني أهرول إلى حجرة النوم لأفتح الدولاب، وأخرج ثوبي البني الطويل ذي الأكمام المحتشمة، وهو الثوب المخصص لمقابلة الغرباء في البيت. خلعت قميص النوم وارتديت الثوب على عجل، ثم كوّمت شعرى إلى الخلف بمشبك، وأخذت التمام في المرآة. بعدها انطلقت إلى باب الشقة ففتحته واحتفظت بمفتاحه في يدي. كنت مفعمةً بأمل : لعله لم يفعلها والمرأة على ما يرام. تمنيت ألا تكون الفأس قد وقعت في الرأس لأصالحهما. قررت ذلك بينما كنت أعد خريطة بسيطة للكلام مع أولئك الجيران. سأدق الجرس بلطف، وعندما يفتح الرجل لي بعد تردد، إثر إخباري له بمن أكون، أعرفه بنفسي قائلةً : فريدة بدوي. مدرِّسة بمدرِسة أهل العلا الإعدادية للبنات. أصلي من الفيوم ومنقولة بعد الترقية كمدرسة أولى للجغرافيا إلى هنا. الحقيقة أنا ساكنة وحدي، ثم أني تنبهت من نومي على صوتكم، وبصراحة الدنيا ليل والطيب أحسن، ثم إن كل عقدة ولها حلال، المهم صفاء القلوب والنيّة السليمة. وأنا سمحت لروحي بالتدخل في الموضوع لأننا هنا في

الأحياء الجديدة المتطرفة عن وسط البلد، كلّ إنسان منّا وكأنه مقطوع من شجرة، يعني من المفترض أن نكون كلّنا ستراً وغطاءً على بعضنا بعضاً، وسنداً وعوضاً عن الأهل والأحباب. ولما يَبُشّ الرجل في وجهي ويدعوني للدخول، أدخل بأدب، وأطيّب خاطره وخاطر زوجته التي سيأمرها بعمل الشاي، وعندما نجلس ثلاثتنا لشرب الشاي، أهدئ وألطّف الجو بينهما، بادئةً الحديث عن حالي وظروفي لأهيئهما للكلام عن حالهما، وحين أستشف أنهما ارتاحا لما قلت، وفتحا قلبيهما لي، مثلما فتحت لهما قلبي، آخذهما بالهداوة والعقل، وأمد لهما حبل المعروف والوداد، فنأخذ ونعطي في الحديث، وكلمة من هنا وكلمة من هناك، حتى تهدأ النفوس، ويطير دخان الصدور، ثم أني لا أتركهما إلا بعد أن يكونا سمناً على عسل، والمشكلة بينهما صافية لبن، ونصبح بعد قليل جيراناً وأصحاباً، آخذ صوتهما ويأخذان صوتي، وكذلك اللبن لي عندما يأتي اللبّان ولا يجدني، لأني أكون في المدرسة. كما أن صوتهما يصبح معي، بدلاً من الوحدة والوحشة والشعور بأن الإنسان مرمي رمية كلب أجرب منبوذ في صحراء حفراء جفراء.

اجتزت الفَسحة الموصلة بين باب شقتي وشقتهما بثبات وحماس، بدا لي كل شيء ساكناً في ذلك الوقت المتأخر من الليل. هممت برفع يدي لأتحسس موضع زر جرس الباب في الظلمة، التي لم يغيبها كثيراً ضوء ضعيف نافذ من شراعة بابهما الزجاجية المثبتة خلف قضبان حديدية رفيعة، وقبل أن تمتد يدي للضغط على الزر، جاء صوت الرجل عبر الباب المغلق، صوت سيّال بالحنان والرقة والرضا وهو يقول : – خلاص.. حقك عليّ تعالي هنا، تعالي يا حلوة على حجري، بس.. بس.. بس.. بس. لكن إياك ومدّ اليد

على أي أكل محطوط في المطبخ. أكلك في طبقك وبس. فاهمة، فاهمة يا أنيسة، يا الله، تعالي عندي.. بس بس بس بس. تلفّتُ في الظلام حولي، داخلني شعور وكأني مازلت نائمة، سارعت الخطى إلى بيتي وساقاي لا تقويان على حملي، خوفًا من أن يراني أحد وأنا على هذه الحال، فلما وصلت إلى باب شقتي لأدخل وأغلقه خلفي، كنت كمن عبر بحر الظلمات إلى برّ الأمان.

وقفت لحظات أستند بظهري إلى الباب المغلق، ألهث انفعالا. كنت خائفة مضطربة مطمئنة راضية معًا، فالرجل غريب على أية حال رغم أنه لم يقتل، أظن أنه يؤاخي الجن، وإلا فلماذا كل هذا الضجيج والزعيق ؟ أمن المعقول أنــه كــان يحادث القطة ؟ أيحادث قطة مثلما يحادث أي إنسان عاقل ؟ ضربت كفًّا بكفّ، وسرت إلى غرفة نومي، خلعت عني ثوب الغرباء، وفكري ما يزال مشغولاً بالرجل، لكني أقنعت نفسي في النهاية أن الأمر لا يخلو من طرافة، ثم إن الحياة في هذه المدينة المجنونة، الكئيبة، الموترة، تدفع الناس إلى حافة العُصاب، وتجعلهم يفعلون أي شيء، أي شيء مهما كان غريبًا وشاذًا يصعب تصديقه.

استعدتُ سكينتي قليلا بعد توصلي لهذه النتيجة، فألقيت بنفسي على سريري طلبًا لاسترخاءٍ تمنيته في هذه اللحظات، وأخذت أتقلب عليه، فبدا لي واسعًا مريحًا، فردتُ ساقيّ وباعدت بينهما متلذذة بنسمات آخر الليل الطرية الداخلة من النافذة المفتوحة على مصراعيها بجواري. تنفست بعمق ونظرت متأملةً سماءً رائقة ممتدة تعزف بوميض نجومها لحنًا ذهبيًا هادئًا. ظللت أحدق فيها بعيني باحثةً عن درب التبانة، حتى بدأ النعاس يداهمني.

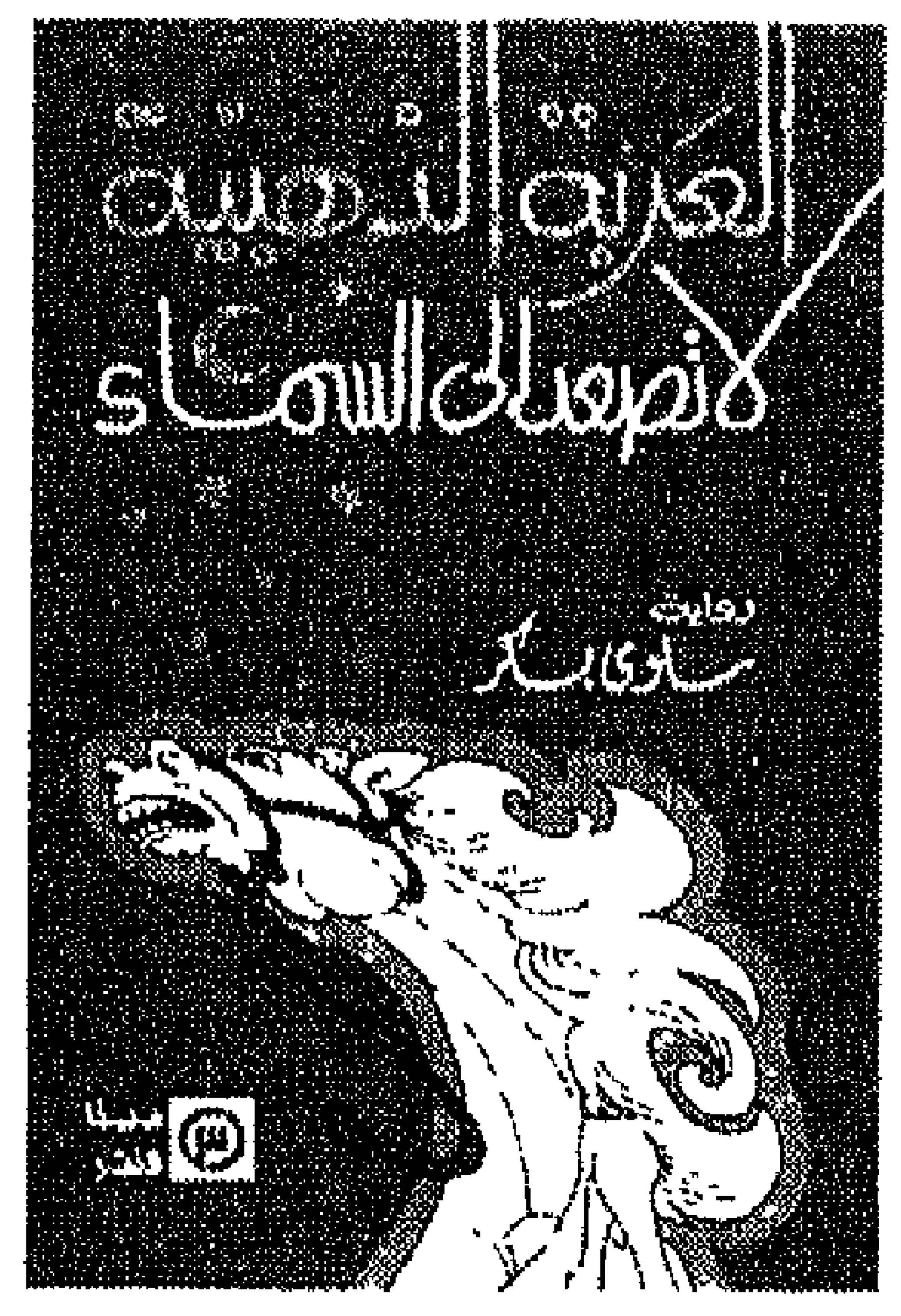
كنت أثناء ذلك أفكر في جاري الغريب، بدا لي مسكينًا بائسًا. حاولت تذكر ملامحه وتحديدها، اكتشفت أنها عاديّة تمامًا، لكنها مقبولة ولطيفة إلى حد ما. تقلبت في فراشي بجسد أخذ في الاستكانة والاسترخاء مستسلمًا لنعاسٍ لذيذ، ولرغبةٍ ما، كان قد نسيها منذ زمن بعيد.

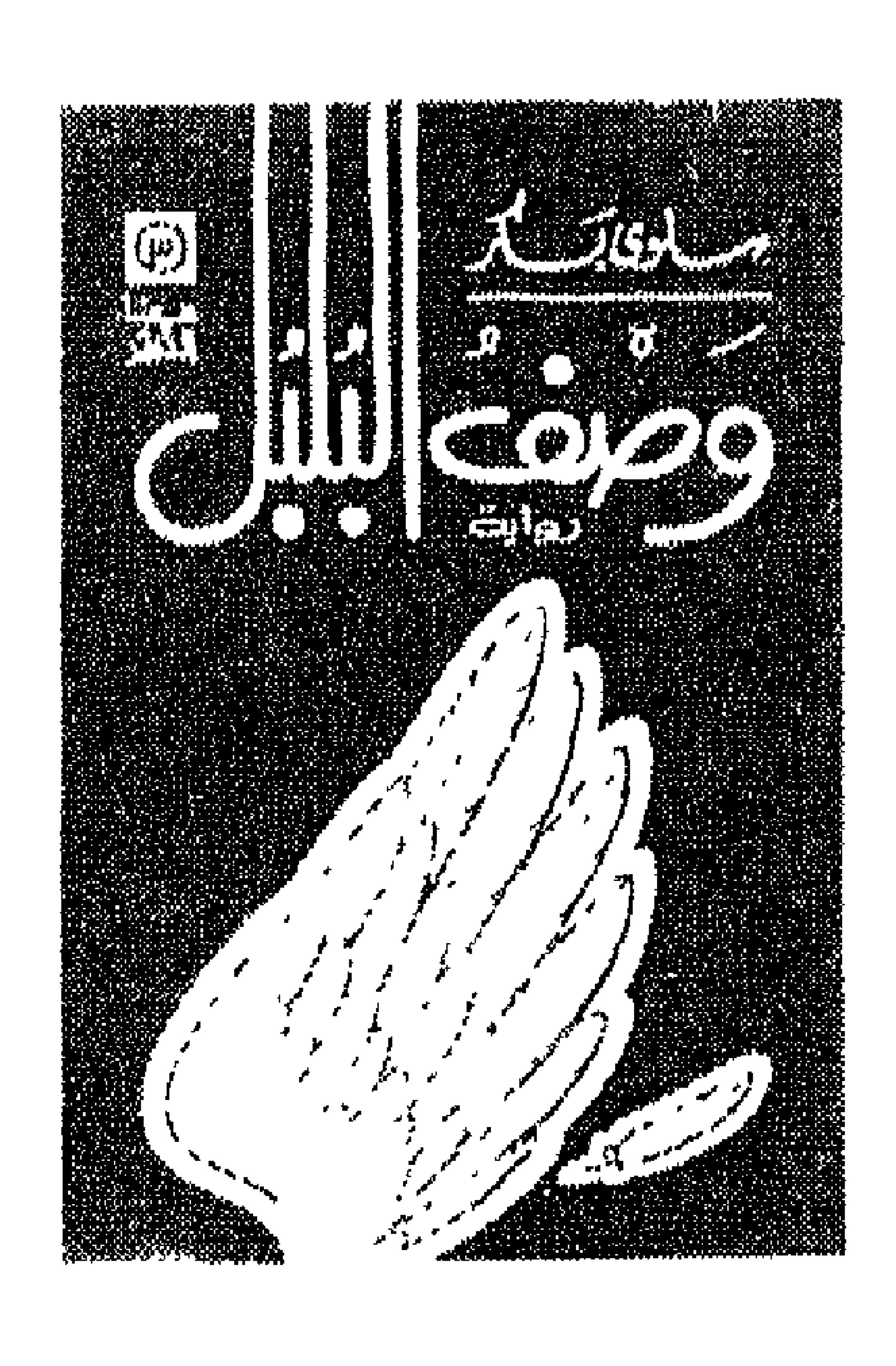


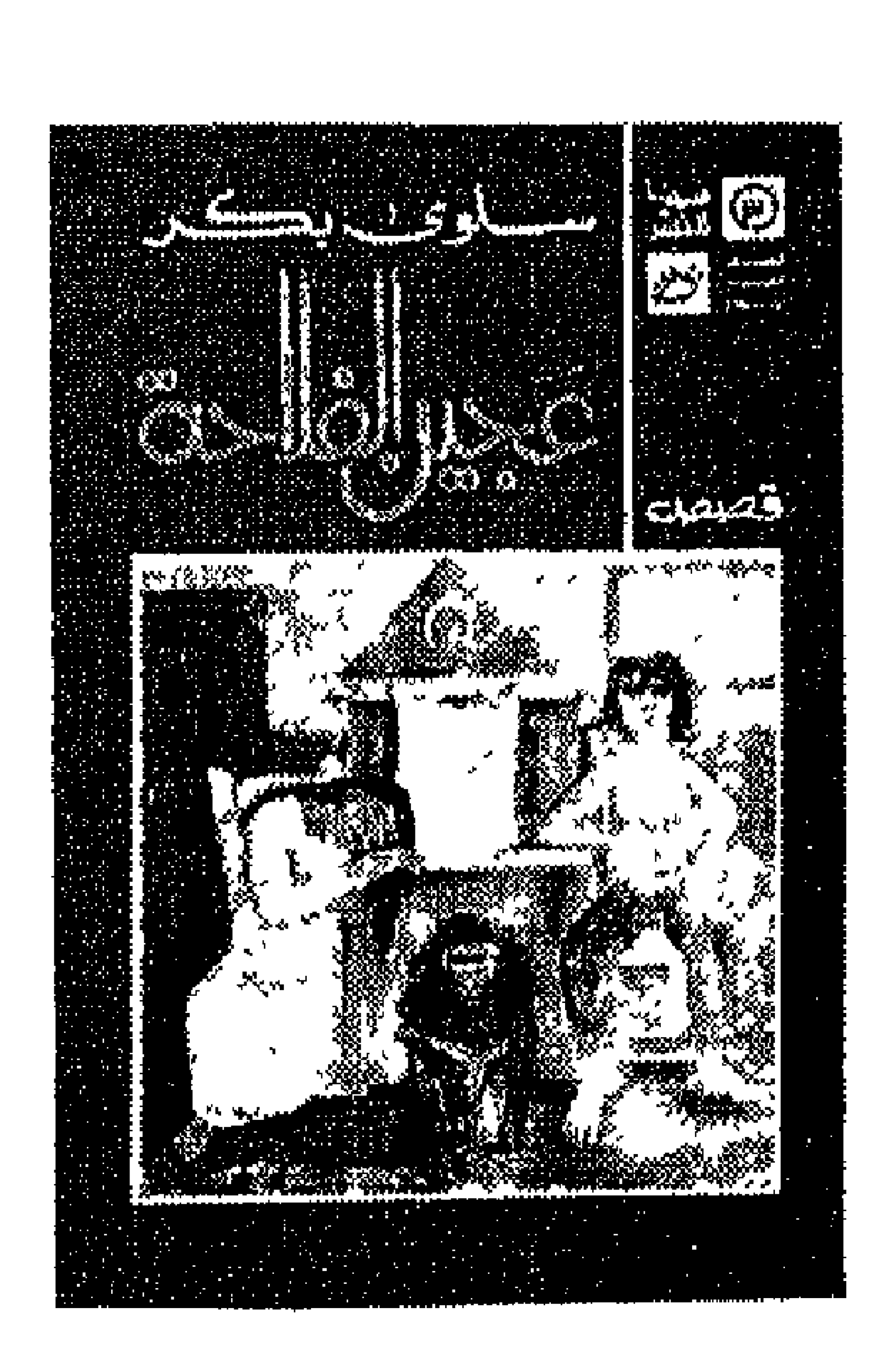
فهرست

صدر للكاتبة :

- زينات في جنازة الرئيس (قصص قصيرة) - القاهرة /١٩٨٦.
- مقام عطية (رواية قصيرة وقصص) - دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع - القاهرة /١٩٨٦.
- عن الروح التي سرقت تدريجيًا (قصص قصيرة) - مصرية للنشر والتوزيع - القاهرة /١٩٨٩.
- العربة الذهبية لا تصعد إلى السماء (رواية) - سينا للنشر - القاهرة / ١٩٩١.
- عجين الفلاحة (قصص) - سينا للنشر - القاهرة /١٩٩٣.
- وصف البلبل (رواية) - سينا للنشر - القاهرة /١٩٩٣.







أعمال مترجمة إلى الإنجليزية :

- **The Wiles of Men** and other stories

Translated by Denys Johnson - Davies

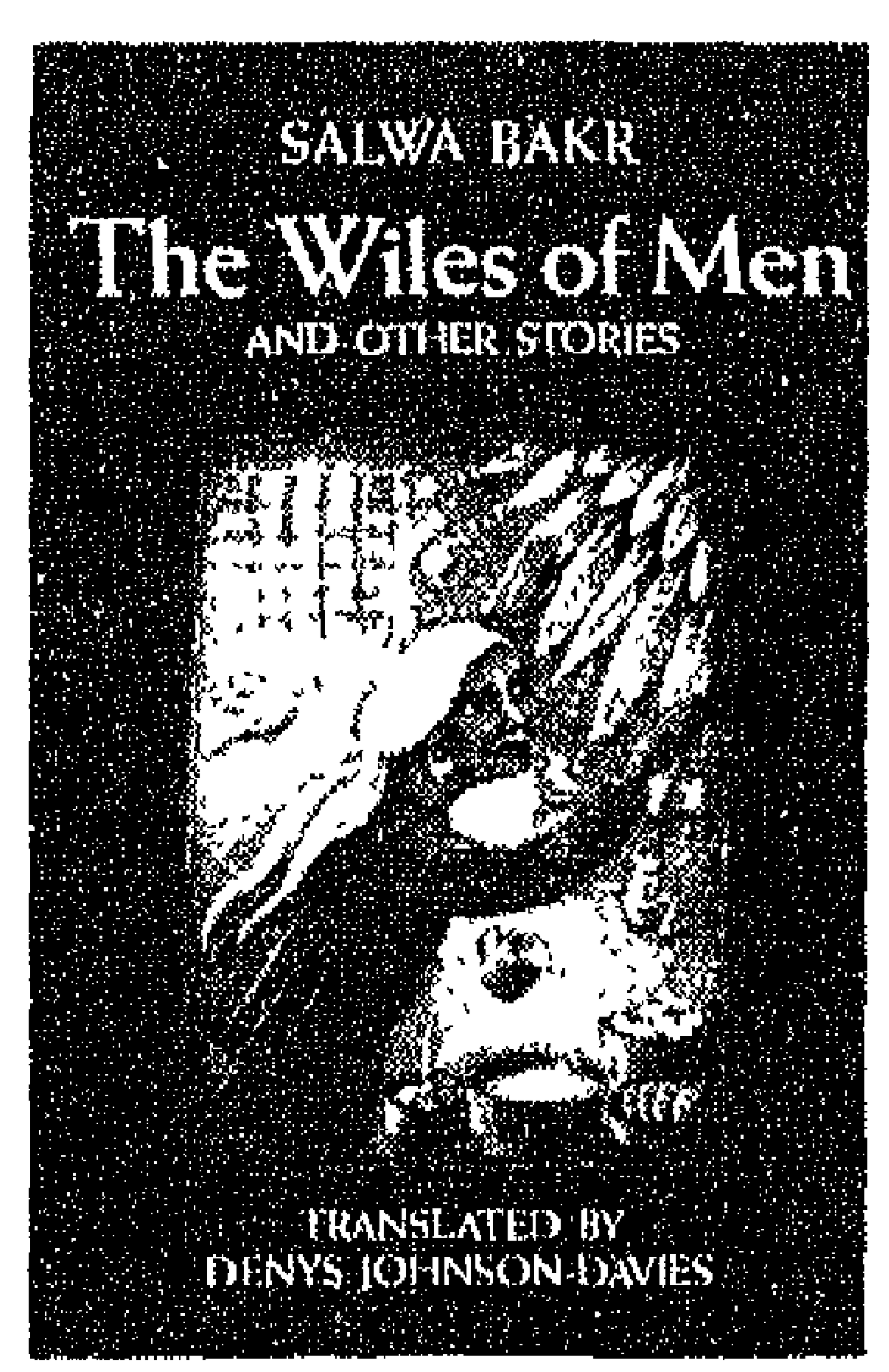
- Qartet Books - London 1992.

- University of Texas Press - Austin 1993.

- **Such a Beautiful Voice**

Translated by Hodda El Sadda

Cairo, G B O, 1992.



ويصدر قريباً :

- **The Golden Chariot**

Garnet - London.

- **Such a Beautiful Voice**

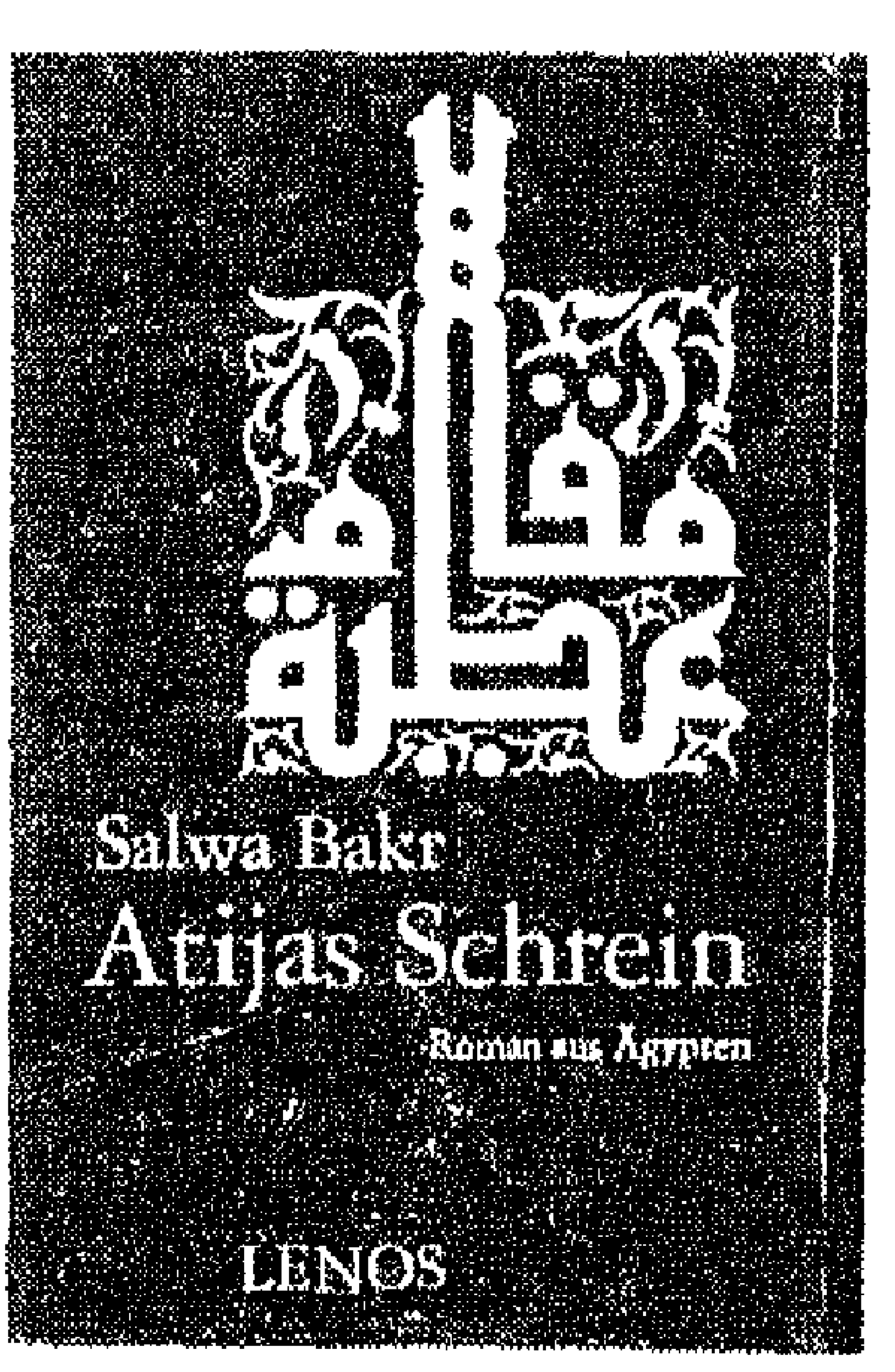
Kali For Women - New Delhi.

أعمال مترجمة إلى الألمانية :

- **Atijas Schrein** - Herausgeben

Von Hartmut Fähndrich

Lenos Verlag - Basl - 1992.



ويصدر قريباً بالألمانية عن الدار نفسها :

- مختارات قصصية .
- العربة الذهبية لا تصعد إلى السماء.

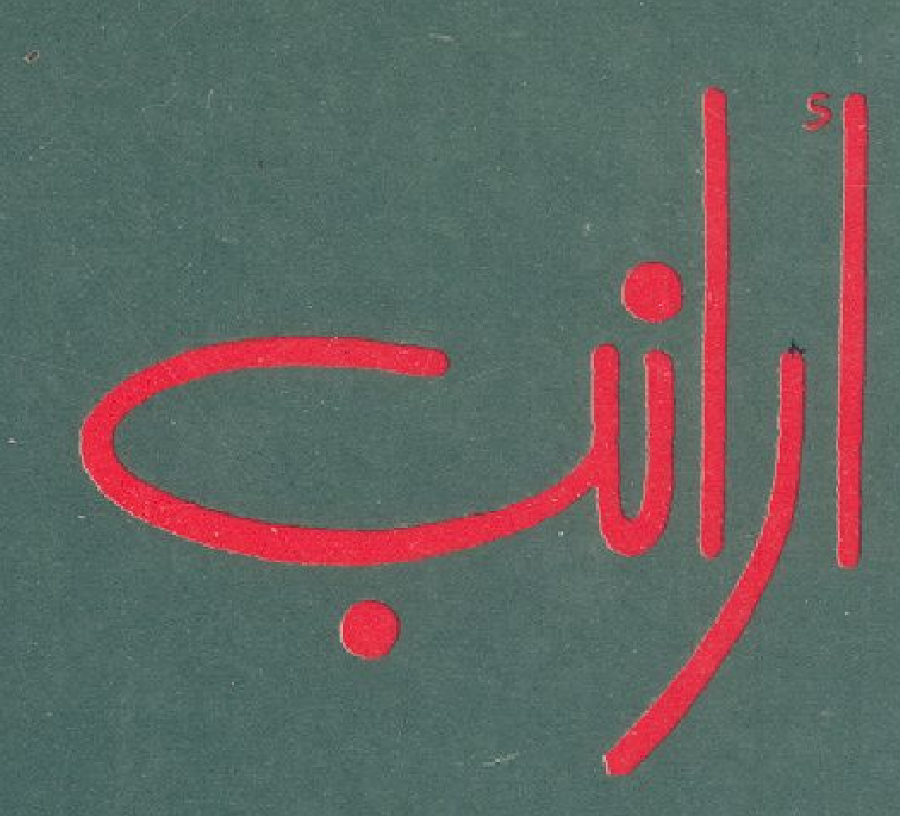


مدينة العاشر من رمضان المنطقة الصناعية A1
تليفون ٣٦٢٨٨١-٠١٥

٩٤/١٦٠٩

I.S.B.N: 977 - 5140 - 64 - 1

الغلاف: عماد حليم



بعد ستة شهور من عودة أسامة إلى البيت بدأت الأمور تسير سيرها المعتاد، فقد استعاد توازنه النفسي شيئاً فشيئاً بفضل الحقن المهدئة والمنومة والمؤثرة على التركيب الفسيولوجي لسوائل المخ، ثم إنه عاد يزاول عمله في دفتر المواليد بالوزارة، والجديد هنا أنه صار يواظب على صلاة الظهر مع مديره العام في الجامع العشوائي الذي يحتل وقت الصلاة مدخل الدور الأول في الوزارة، حيث تفرش الحصر على الأرض، ويتعطل المرور في هذه المنطقة من المبـ

نصف ساعة يومياً يقضيها الجمهور في حالة انتظـ

ينتهي الموظفون المؤمنون من أداء واجبهم الديني.


سينا للنشر